طالب الداوود

غفران

رواية

ألف ياء
Alf Yaa

غفران

منشورات «ألف باء AlfYaa»

المؤلف: طالب الداوود

الكتاب: غفران (رواية)

صدرت النسخة الرقمية: كانون الثاني /يناير2026

- **الناشر: «ألف ياء AlfYaa»**
- **الموقع الإلكتروني:** www.alfyaa.net
- جميع حقوق توزيع النسخة الرقمية بكل التنسيقات
- (ePub ،PDFوMobiو/أو أي تنسيق رقمي آخر
- محفوظة لـ**«ألف ياءAlfYaa»**
- جميع الحقوق الفكرية محفوظة للمؤلف
- يعبّر محتوى الكتاب عن آراء مؤلفه.
- **«ألف ياء AlfYaa»** ناشرة للكتاب فقط وهي
- غير مسؤولة عن محتوى الكتاب

- **تصميم الغلاف والإخراج: طالب الداوود**

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

طالب الداوود

غفران

رواية

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

منشورات «ألف باء AlfYaa»

الإهداء:

إلى النساءِ العراقياتِ
اللواتي نُحِرْنَ وأُعْلن عن انتحارهن.

إلى النساء والفتيات اللواتي قُتلن لأنَّهُنّ نِساء.

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

منشورات «ألف باء AlfYaa»

1

هل تُشنق الحقيقة نفسها؟ أم أن اليد التي عقدت الحبل، هي ذاتها التي تكتب تاريخاً جديداً للغائبين؟ في صباحات بغداد الخريفية، حيث يتسرب الضوء كأنه شاهدٌ متردد، كانت غفران معلّقة. لم يكن انتحاراً عادياً، بل كان مسرحيةً أُعدّت بدقة، وكشفتْ خشبة المسرح أسراراً أكثر مما أخفت. كل عقدةٍ في الحبل، كل غبارٍ على المروحة العتيقة، كان يهمس بسؤالٍ أثقل من صمت الموت: من نسج هذه النهاية؟

* * *

يوم الخميس السادس عشر من تشرين الثاني 2023، تمام الساعة السابعة والسبع عشرة دقيقة صباحاً، عندما كانت الشمس تُقسِّم أشعتها المائلة بصعوبةٍ على أزقة حي الفضل، راسمةً خطوطاً باهتةً على جدرانٍ أكلها الزمن وعفن الرطوبة، استيقظت أمّ غفران. لم يكن يوماً مختلفاً عن سابقه، فبعض أيام الخريف في بغداد تحملُ ثقلاً متشابهاً من الضباب البارد والوعود المؤجلة. نهضت الأمّ من فراشها المتواضع، تتلمّس بخطواتٍ بطيئةٍ جدران المطبخ، رائحة الشاي الثقيل والخبز الذي تُدفّئه لتصنع صباحاً تقليدياً لزوجها الذي لا يغادر المنزل إلا نادراً، ولابنها زياد الذي يعود متأخراً ويستيقظ متأخراً، ولابنتها غفران التي هي نوارة الدار. لكن شيئاً ما، هذه المرة، كان يضغط على صدرها كحجرٍ قديم. إحساسٌ مبهم، شبيهٌ بالضباب الكثيف الذي يلفُّ المدينة بعد ليلةٍ ماطرة، تسلّل إلى روحها، ليُفسد عليها هدوء الصباح المعتاد.

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

هي عادةً ما تذهب إلى غرفة غفران لتُوقظها بابتسامةٍ خجولة، لكن قدميها هذه المرة ترفضان الحركة، وكأن هناك حاجزاً غير مرئي يحاول منعها من الوصول إلى باب الغرفة الخشبي. غفران، الطالبة المتفوقة في قسم الهندسة المعمارية، تملك غرفةً صغيرةً في الطابق العلوي، تطلُّ على سطح البيت، عالمها الخاص الذي صار مرتعاً للرسومات الهندسية والأوراق المتناثرة والكتب المتكدسة. المكان يشبهها؛ فوضويٌّ ومرتّبٌ في آنٍ واحد، يحمل بصمة روحٍ لا تقبل إلا أن تكون حرةً في كل تفاصيلها.

وصلت الأمّ أخيراً إلى عتبة الباب، مترددةً، ثم دفعت الباب ببطءٍ شديد. لم يكن مفتوحاً بالكامل، بل مردوداً كأن أحدهم قد خرج للتو. تسربت نظراتها عبر الفتحة الضيقة، لتلتقي المشهد. الزمن توقف. كلّ ذرة هواءٍ في الغرفة تجمدت. هناك، في مركز اللوحة الصامتة، يتدلى جسد غفران النحيل من مروحة السقف العتيقة التي كانت يوماً ما تهب نسائم باردة في حر الصيف القائظ، لكنها اليوم أصبحت مشنقةً صامتةً لأحلامٍ لم تكتمل. كان الحبل أبيضاً، جديداً، يلمع ببريقٍ قاسٍ تحت الضوء الخافت، وكأنه لم يُستعمل إلا للمرة الأولى. في هذا المشهد المروع للأم لم يلفت انتباهها؛ أن الحبل لم يكن مربوطاً بإحكامٍ في شفرات المروحة الثقيلة، بل كان متدلياً ببعض الرخاوة، كأن عُقدته وُضعت على عجلٍ أو لم تُشدّ بالقوة الكافية لحمل جسدٍ كاملٍ بثبات، ولم تنتبه إلى الخلع الظاهر في أعلى الدرفة اليمنى من الباب عند دخولها.

نظرت الأمّ إلى الأسفل، حيث يجب أن يكون كرسيٌ، أو

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

كومة كتب، أو أي شيءٍ كان من الممكن أن تستخدمه غفران للوصول إلى المروحة. لم يكن هناك شيء. الأرض فارغةً، خاليةً تماماً من أي أثرٍ لوسيلةٍ صعدت بها غفران إلى هناك. رجلاها بعيدتان عن الأرض بمسافةٍ تُثير الشكّ، لا تلامسان شيئاً، معلّقتان في فراغٍ. لم يكن وجه غفران مرئياً بوضوح، فقد انسدلت خصلاتٌ شعرها الفاحم لتغطيه، لكن الهدوء الغريب الذي لفّ جسدها كان أشد قسوةً من أي ردة فعل مباشرة.

لم تصرخ الأمّ على الفور. لم تستطع. الصدمة كفيلةً بأن تُجمد كل الأوردة في جسدها، فتُرْجِعَ الصرخة إلى حنجرتها ككتلةٍ من الجمر. لم يكن الألم وحده ما يقتلها، بل كان مزيجاً من الرعب المطبق والشكّ المُباغت. لم تكن ابنتها لتفعل هذا. غفران، الشمعة التي أضاءت حياتهم ببصيرتها وضحكاتها المدويّة، كيف لها أن تُطفئ نفسها؟ ثم، بعد ثوانٍ بدت دهراً، انطلقت الصرخة. صرخةٌ ممزقة، لا تحمل معاني الحزن فحسب، بل تحمل كلَّ لوعةِ الأم التي تُمزقها رؤية ابنتها معلّقةً كلوحةٍ منسيةٍ في متحفٍ مهجور. صرخةٌ اهتزت لها جدران البيت العتيق، واخترقت سكون حي الفضل، لتعلن عن نهايةٍ مباغتةٍ لم يكن أحدٌ يتوقعها.

* * *

دوى صوت الصرخة في أرجاء البيت، واخترق الأبواب المغلقة، وتسلل إلى غرفة زياد في الطابق الأرضي، حيث كان غارقاً في نومٍ عميقٍ بعد ليلةٍ طويلةٍ من العمل مع ميليشيا العمارتلي. استيقظ زياد على الفور، ليس جزعاً، بل

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

بانتباهٍ حادٍ كحيوانٍ يشعر بالخطر. لم تكن صرخة أمه مجرد صوت ألم، بل كانت نذيراً بشيءٍ عظيمٍ قد حدث، شيءٌ قد يُعكّر صفو الترتيبات المعقدة التي نسجها بعناية. ارتدى ملابسه بسرعةٍ خارقة، وفي طريقه إلى الأعلى، شعر ببرودةٍ غريبةٍ في أطرافه.

وصل إلى غرفة غفران ليجد أمه تترنح على عتبة الباب، يديها تضمان وجهها، وصوتها يتلاشى بين شهقاتٍ ممزقةٍ. عندما رأى المشهد، لم يظهر عليه أي أثرٍ لصدمةٍ حقيقيةٍ أو ألمٍ عميق. لم يقل "يا إلهي" أو "ماذا حدث؟". بدلاً من ذلك، مسحت عيناه، تحت جفنيه المنتفخين، الغرفة بسرعةٍ، وكأنه يقيّم مسرح جريمة، أو بالأحرى، مسرحيةً أُنجزت توّاً. ركز على الحبل، على المسافة بين القدمين والأرض، على غياب الكرسي، ثم تحوّلت نظرته الباردة إلى أمه. "ماذا حدث؟" قالها بصوتٍ أجش، خالٍ من أي عاطفةٍ حقيقية، كأنه يستجوبها، لا يواسيها.

تحرك زياد بخطواتٍ ثابتة، لا يتردد، نحو جسد غفران. أمسك بيديه القويتين جسد أخته المعلّق، وكأنه يزيح ستارةً ثقيلة. بدتْ غفران خفيفةً بشكلٍ مدهش، كأن روحها قد استنزفت جسدها قبل أن يشنق. لم يتردد زياد للحظة. رفع جسدها بحركةٍ شبه آليةٍ، ثم جذب الحبل من المروحة العتيقة التي بدأت تتأرجح ببطءٍ محزنٍ كأنها تشارك في هذا المشهد المأساوي. سقط جسد غفران على الأرض ببعضٍ من الثقل المكتوم. تلك اللحظة هي الإعلان الأول عن تزييف الحقيقة. لم ينتظر زياد وصول الشرطة، لم يحافظ على مسرح الجريمة. كان يُعيد ترتيب الرواية قبل أن تُكتب.

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

بسرعةٍ، أخرج زياد هاتفه المحمول. لم يتصل بالشرطة على الفور. أرسل رسالةً صوتيةً قصيرة، بصوتٍ هادئٍ ومُتحكّمٍ. يحمل صوته نبرةً من التوجيهات الحازمة، كلماتٌ مقتضبةٌ وغير مفهومةٍ لأمه المذهولة، ولكنها كانت كافيةً لتُرسِّخ شكاً عميقاً في قلبها. "المسألة انتهت. ترتيبات الدفن ستكون اليوم." كانت هذه هي الرسالة التي ألقتْ بظلالٍ قاتمةٍ على أحداث ذلك الصباح. لم يمضِ سوى بضع دقائق حتى اتصل زياد بالشرطة. كان يتحدث بصوتٍ مصطنعٍ يُحاول فيه تقليد الحزن، لكنه بدا أجشّ وخالٍ من الدموع. "أختي... انتحرت." الكلمة خرجت منه كحكمٍ نهائي، لا كسؤالٍ أو وصفٍ لمأساة.

بدأ زياد، تحت نظرات أمه المليئة بالذهول والخوف، في إزالة أي أثرٍ قد يشير إلى غير "الانتحار". أخفى الحبل الذي استخدمته غفران، ورتب طاولة الدراسة والكتب عليها، وكأن كل شيء كان طبيعياً. لم تكن أمه قادرةً على الكلام، بل تصرفت وكأنها محصورةً بين صدمة فقدان ابنتها والخوف من ابنها الذي تحول إلى كائنٍ غريبٍ، باردٍ، ومسيطر. لم يكن زياد مجرد أخٍ أكبر، بل كان يمثل قوةً قاسيةً لا تعرف الرحمة، قوةً قادرةً على محو الحقائق بسهولةٍ مذهلةٍ.

* * *

بعد دقائق بدت وكأنها ساعات، اخترقت صفارات الشرطة صمت الحي. وصلت سيارتان إلى باب المنزل، وخرج منها ثلاثة عناصر من الشرطة، يتقدمهم الملازم

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

حيدر، وجهه شاحبٌ وعيناه تحملان إرهاق ليالي العمل الطويلة. المشهد ليس غريباً عليه، ففي بغداد ما بعد الحرب، أصبحت مشاهد الموت والجرائم جزءاً من الروتين اليومي الذي يُميت الروح. لكن هذه المرة هناك شيءٌ مختلف، شيءٌ كان يطفو في الأجواء كأنه غبارٌ كثيفٌ من الأسرار.

عندما دخل الملازم حيدر إلى غرفة غفران، وجد الجسد ملقىً على الأرض. لم يرَ المروحة وهي تُستخدم كمشنقة، ولم يرَ الحبل المعلّق. رأى فقط جسداً ملقىً بلا حراك، وحوله أمٌ ثكلى تصرخ وتنتحب، وأخٌ يرتدي قناع الحزن المصطنع. تلك هي اللحظة الحاسمة التي قُتلت فيها الحقيقة للمرة الثانية. نظر زياد إلى الملازم حيدر بعينين ثابتتين، خاليتين من الدموع، وقال ببرودٍ: "انتحرت. فشلت في دراستها، وضغوط نفسية." خرجت الكلمات منه مرتبةً ومحسوبة، كأنها نصٌّ جاهزٌ أُعدّ بعناية.

بدأ الملازم حيدر في إجراءات المعاينة، وبدت أشبه برقصةٍ بطيئةٍ على إيقاعٍ قديم. التقط صوراً للجثة وهي على الأرض. لم يُعاين المروحة بدقة، ولم يسأل عن غياب الكرسي. عيناه ركزتا على منطقة الرقبة، حيث كانت آثار الحبل واضحةً، وصور ذلك. وفي هذا السياق، فُسرتْ العلامات على الفور بأنها دليلٌ على "الانتحار"، لا على "شيء آخر أو احتمال آخر". بدا أن الملازم حيدر يعيش تحت ضغطٍ هائل، يعلم أن أي تحقيقٍ جادٍ في مثل هذه الحالات قد يفتح أبواباً لا يُمكن إغلاقها بسهولة، خاصةً عندما يكون أحد أفراد العائلة مرتبطاً بجهاتٍ نافذةٍ مثل

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

زياد. يعلم أن وراء زياد ميليشيا العمارتلي، وأن الصمت هو أحياناً أرخص ثمنٍ للنجاة.

"هل هناك أي شكوك جنائية؟" سأل الملازم حيدر، لكن سؤاله بدا مجرد إجراءٍ روتيني، وليس بحثاً حقيقياً عن إجابة.

أجابه زياد بثباتٍ: "لا، الأمر واضحٌ. كانت تعاني من ضغوط نفسية منذ فترة. ونحن نتحمل المسؤولية، فقد كنا قاسين عليها بسبب فشلها في دراستها وتصرفاتها غير المقبولة ".

هذه الكلمات كافيةً لتُغلق باب التحقيق. "فشل دراسي" و"ضغوط نفسية" و"تصرفات غير مقبولة" هي الأغطية الجاهزة التي تُلفّ بها غالباً جرائم القتل التي تندرج تحت مسمى "شرف العائلة". لم يسأل الملازم عن تفاصيل حياتها الاجتماعية، أو عن سجلها الأكاديمي، أو عن أحلامها. لم يسأل عن تفاصيل خاصة بغفران، بل تعامل معها كقضيةٍ كاملة في وضوحها، وملفٍ يمكن إغلاقه على عجل.

أُخذت أقوال الأمّ المنهكة، التي لم تستطع إلا أن تردد ما قاله زياد، خوفاً وهلعاً. كانت الكلمات تخرج منها كشهقاتٍ متقطعةٍ، ممزوجةً بالدموع، لكنها لم تكن قادرةً على تفنيد الرواية التي نُسجت حول ابنتها. صَمَتَ الأب، الجالس في غرفة المعيشة، كعادته، مغلوباً على أمره، متجاهلاً ما يجري في بيته، خائفاً من أن يكون له أي رأيٍ مخالف.

غادر الملازم حيدر المنزل بعد أن أكمل "معاينته". كتب في تقريره الأولي: "وفاة بسبب الانتحار شنقاً، يُرجّح لأسبابٍ نفسيةٍ تتعلق بالفشل الدراسي والضغوط النفسية

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

والعائلية." كانت تلك الجملة هي نقطة النهاية لبدايةٍ كاذبة. لم يكن يدري أن كل حرفٍ كتبه في تقريره سيكون حبلاً آخر، يُعلق الحقيقة هذه المرة. كانت بغداد، في ذلك اليوم، قد خسرت ابنةً أخرى، ليس فقط بسبب جريمةٍ، بل بسبب صمتٍ وتواطؤٍ أعمق من كل الجراح الظاهرة.

* * *

بعد رحيل الشرطة، حلّ صمتٌ ثقيلٌ على منزل غفران، صمتٌ أثقل من صرخات الألم. كانت الأمّ تجلس في غرفتها، تحتضن صور ابنتها، وكأنها تُحاول أن تُعيد إليها الحياة بلمسةٍ يائسة. أما زياد، فقد عاد إلى طبيعته المعهودة، هادئاً، متحكماً، وكأن شيئاً لم يكن.

* * *

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

2

في بلادٍ يُعلّقُ فيها الحزنُ لافتةً لا تُقرأ، كيف تُقامُ جنازةٌ لروحٍ لم تكتمل قصتُها؟ أيتها الأيادي التي أسرعت بتجهيز القبر، هل يمكنكم دفن الحقيقة تحت ركام التراب، أم أنتم تزرعون بذرةً جديدةً لشكٍّ لن يذبل؟ بغداد، في ذلك الصباح البارد، لم تكن سوى شاهدٍ صامتٍ على فصلٍ جديدٍ من فصول الخيبة، فصلٍ كُتبَ بماء العيون ودموع القهر، لكن بلا عنوانٍ واضحٍ، سوى سؤالٍ مُعلّقٍ في الأثير، أثقل من كل تراتيل الصمت: هل يمكن لروحٍ أن تنتحر مرتين، مرةً بالجسد، ومرةً بالرواية؟

* * *

تقطعُ داليا شوارع حي الفضل الملتوية، التي بدت في ذلك اليوم كأوردةٍ متصلبةٍ لجسدٍ منهك، كلُّ زاويةٍ فيها تحملُ صدى ضحكات غفران البعيدة. بسط الخريفُ سلطانهُ على المدينة، مُلَوّناً الشجرَ بألوانٍ شاحبةٍ تُحاكي وجوهَ البشرِ في عراقٍ ما بعد الحرب؛ وجوهٌ حملتْ ندوباً أعمق من أي جرحٍ مرئي. رائحةُ التراب المبلل تختلطُ بدخان المولدات الكهربائية التي لا تتوقف عن الصخب، وبأصوات الباعة المتجولين التي بدت هذه المرة باهتةً، كأنها تأتي من عالمٍ آخر، عالمٍ لا يكترثُ للموت، بل يحتضنهُ كجزءٍ من وجوده اليومي. يخفقُ قلبُ داليا بإيقاعٍ مُضطربٍ، يرفضُ تصديقَ

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

الكلمات التي اخترقتْ هاتفها قبل ساعاتٍ قليلةٍ، كلماتٌ حوّلتْ عالمها إلى رمادٍ بارد. "غفران ماتت." لم تكن تلك مجرد جملة، بل كانت صخرةً هوتْ على كلّ ما بنته من أحلامٍ مشتركةٍ مع رفيقة دربها.

تمسح عينا داليا الوجوه التي مرت بها في الشارع، تبحثان عن تعبيرٍ واحدٍ يُفسّرُ هذا الرحيل المفاجئ، هذا الاقتلاع القاسي. لكنها لم تجد سوى نظراتٍ فارغةٍ، تُخفي وراءها خليطاً من الفضول والخوف واللامبالاة، كأن الموت في بغداد أصبح حدثاً عادياً لا يستدعي سوى هزّة رأسٍ عابرةٍ وكلمة "الله يرحمه" تُردد آلياً. الأحاديثُ خافتةً على الألسن، والخطواتُ متثاقلةً، لا تحملُ جزعاً حقيقياً يليقُ برحيل شمعةٍ مثل غفران. كلُّ شيءٍ يوحي وكأن هذه الجنازة ليست لغفران، الفتاة التي كانت تنبض بالحياة، تملأ الدنيا صخباً وضحكاتٍ وآراءً جريئةً، بل لظلٍّ عابرٍ لا يعرفه أحد.

عندما وصلتْ داليا إلى بيت غفران، هدأ الضجيجُ وخفتَ إلى همسٍ مكتومٍ، لكنّ الهواءَ كان مُشبّعاً بكآبةٍ ثقيلةٍ، كأنّ جدرانَ البيتِ، نفسها، تتنفسُ حزناً كئيباً. رأتْ زيادَ، أخا غفران، يقفُ عند المدخل، بوجهٍ شاحبٍ خالٍ من التعبير، كقناعٍ جصّيٍّ صُنعَ ليخفي ما وراءه. كان يرتدي دشداشةً سوداءَ، لكنّ هيئته لم تكن توحي بحدادٍ، بل بسلطةٍ مُبهمةٍ، كأنه المشرفُ على عمليةٍ دقيقةٍ لا تحتملُ الخطأ. كانت حركاته موزونةً، كلماته مقتضبةً، يوجهُ بضعَ أقاربهِ بتعليماتٍ واضحةٍ لا تقبلُ النقاش.

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

همستْ جارةٌ عجوزٌ لداليا، بصوتٍ متقطعٍ يكادُ لا يُسمع: "لم يغسلوها. أقسمُ لكِ، لم يغسلوها كاملةً... زياد أصرّ أن كلَّ شيءٍ يجبُ أن يكونَ بسرعةٍ، كأنّ هناكَ ناراً تلاحقهم." سَرَتْ كلماتُ العجوزِ كشرارةٍ، أشعلتْ أولَ فتيلٍ للشكِّ في قلبِ داليا. كيف يمكنُ لجسدٍ مسلمٍ أن يُدفنَ دون غسلٍ كاملٍ؟ أليست تلكَ من أبسطِ وأقدسِ شعائرِ الموت؟ غفرانُ فتاةٌ نظيفة ٌ، ترفضُ أيَّ تقصيرٍ في التفاصيل، فكيف يُعاملُ جسدُها هكذا في مماتها؟ شعرتْ داليا بأن هناكَ شيئاً يُسحبُ من تحتِ قدميها، شيئاً يُزلزلُ كلَّ ما اعتقدتْ أنهُ حقائقُ ثابتةٌ. لم يكن الأمرُ مجردَ حزنٍ، بل بدأ يتحولُ إلى إحساسٍ غريبٍ بالخيانة.

* * *

وصلتْ داليا متأخرةً، كأن القدرَ أرادَ لها أن تكونَ شاهدةً على ما بعدَ الحدثِ لا على الحدثِ ذاتهِ. الجنازةُ كانتْ تسيرُ على عجلٍ، كأنّ القائمينَ عليها كانوا يُطاردونَ ظلاً لا يُرى، أو يهربونَ من حقيقةٍ لا تُنطق. لم يُسمح لأحدٍ برؤية غفران. مُنعتْ داليا، وصديقاتها ونساء حيّها الأخريات، وحتى بعضُ الأقارب، من إلقاءِ نظرةِ وداعٍ أخيرةٍ على وجهِ الفتاةِ التي أضاءت حياتهم. يقف زيادُ كحاجزٍ بشريٍّ، بوجهه الحجريّ وعينيه اللتينِ لم ترمشا، يصدُّ كلَّ محاولةٍ للاعتراض. "الشرعُ يقولُ السرعةَ في دفنِ الميّت، إكرام الميت دفنه... وهيَ... انتحرتْ... لا يجوزُ تأخيرها." كانتْ حجتهُ دينيةً، لكنّ لهجةَ صوتهِ كانتْ تحملُ نبرةً من الأمرِ لا تتسقُ معَ الحداد.

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

عينا داليا تراقبانِ كلَّ حركةٍ، كلَّ إيماءةٍ، كلَّ كلمةٍ، لتُسجّلَها في دفترٍ وعيها الذي بدأَ يمتلئُ بالأسئلةِ الحادةِ كشفراتِ سكاكين. لم يكنْ الأمرُ مجردَ جنازةٍ، بل مسرحية تُعرضُ أمامها، مسرحية تُمثّلُ فيها الحقيقةُ دورَ الضحية، ويؤدي فيها زياد دورَ الجلادِ والحَكَمِ في آنٍ واحد.

* * *

أتت الصدمةُ الكبرى عندما حانَ وقتُ الصلاةِ على الجنازة في المقبرة قبل الدفن. يقفُ الأبُ كتمثالٍ من شمعٍ، يذوبُ ببطءٍ تحتَ وطأةِ الحزنِ والخوف. تقدّمَ أحدُ رجالِ الدينِ، شيخٌ جليلُ الهيئةِ كانَ يُعرفُ بورعهِ وتقواه، لكنّ ملامحَ وجههِ كانتْ تحملُ ارتباكاً عميقاً. التفتَ إلى زيادٍ، وسألَ بصوتٍ خفيضٍ: "هل أنتَ متأكدٌ يا بنيّ من أنّها..." لم يُكملْ الشيخُ جملتهُ، لكنّ المعنى كانَ واضحاً كضوءِ الشمسِ في كبدِ السماء. عيناهُ تتوقانِ إلى إشارةٍ، إلى كلمةٍ، تُبرّرُ لهُ ما هوَ على وشكِ فعله.

زيادُ، بعينينِ ثابتتينِ، قاطعهُ بثباتٍ لا يتزعزع: "انتحرتْ يا شيخ. الشرطةُ أثبتتْ ذلكَ. وتقاريرُ الطبيبِ الشرعيِّ أثبتتْ ذلكَ." كذبةٌ بيضاء، أو بالأحرى، سوداء، لكنّها كافية لتُغلقَ كلَّ أبوابِ النقاش. تراجعَ الشيخُ خطوةً إلى الوراءِ. ملامحُ وجههِ تُعبّرُ عن صراعٍ داخليٍّ مريرٍ بينَ واجبِهِ الدينيّ وخشيتِهِ من أن يكونَ طرفاً في تبريرٍ خطيئةٍ، أو ربما، في طمسِ حقيقة. "إذن... لا يمكنُني..." قالها الشيخُ بصوتٍ متقطعٍ، أنهُ اعترافٌ صامتٌ، لكنّ أحداً لم يجرؤْ على فهمه. "لا يمكنُني إمامةُ الصلاةِ على المنتحر." تلكَ هيَ الكلماتُ

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

التي سقطتْ على الحاضرينَ كحجارةٍ ثقيلةٍ، لتُرسّخَ روايةَ زيادٍ، وتُكفّنَ روحَ غفران بوصمةِ العار.

تلا الصمتُ كلماتِ الشيخِ وأصبح أثقلَ من أيِّ صرخة. لم يكنْ صمتاً يحملُ خشوعاً، بل صمتاً يلفُّهُ الخوفُ والتواطؤُ، كأنّ كلَّ حاضرٍ يُحاولُ أن يُبرّئَ نفسهُ من مسؤوليةٍ لا يجرؤُ على مواجهتها. تقدّمَ زيادُ بنفسهِ ليُصلّي على أختـهِ وخلفه عدد قليل من المشيعين ممن ارتضى موقف الصلاة على منتحرة. ترتفع يداهُ للدعاءِ، لكنّ ملامحَ وجههِ خالية من أيِّ خشوعٍ، كأنهُ يؤدي طقساً لا روحَ فيه، أو يُمثّلُ دوراً أُسندَ إليهِ.

* * *

بعدَ أن وُوريتْ غفرانُ الثرى في مقبرةٍ هادئةٍ، بقيت داليا تحتَ تأثيرِ صدمةِ المشهد. لم تكنْ تلكَ هيَ غفران التي عرفتْها، الفتاةُ التي كانتْ تُحلّقُ أحلامها فوقَ أسقفِ بغدادَ المتصدعة. كلُّ شيءٍ يبدو مختلفاً، مُزوّراً، مُفتعلاً. لم يكنْ هناكَ حزنٌ جماعيٌّ يُعبّرُ عن فقدانِ روحٍ بهذا القدرِ من الجمالِ والطموح. بل فقط صمتٌ ثقيلٌ، وهمسٌ خافتٌ، ووجوهٌ تُخفي وراءَها الكثير.

لم تستطعْ داليا أن تُغادرَ البيتَ دونَ أن تفعلَ شيئاً. كانَ قلبُها يُملي عليها أن تغامرَ، أن تبحثَ، أن تجدَ أيَّ شيءٍ يُخبرُها بأنّ شكوكها لم تكنْ مجردَ وساوسَ. تتوقُ إلى رؤيةِ غرفةِ غفران. تلكَ الغرفةُ هيَ قدسَ الأقداسِ لصديقتها، الملاذَ الآمنَ لأحلامِها ورسوماتِها الهندسية. ظنّتْ داليا أنها قد تجدُ فيها أثراً، رسالةً، تلميحاً، أيَّ شيءٍ يُخبرُها الحقيقةَ التي حاولَ الجميعُ دفنَها.

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

الأمُ غارقةٌ في حزنها، تجلسُ في غرفةِ عزاء النساء، تُجيبُ على التعازي بصوتٍ متهدجٍ، وروحٍ شبهِ منهارة. استغلّتْ داليا اللحظة. تسلّلتْ إلى الطابقِ العلويّ، حيثُ توجد غرفةُ غفران. كلُّ جسدِها يرتعشُ، لكنّ إحساساً بالواجبِ أقوى من الخوفِ يدفعُها إلى الأمام. وصلتْ إلى البابِ الخشبيّ الذي حدمل يوماً ما ملصقاتٍ ورسوماتٍ لغفران. البابَ مغلق. ليسَ مجردَ مغلقٍ، بل مُحكَمَ الإغلاقِ، وكأنّ هناكَ سراً عظيماً يُحتجزُ خلفَهُ.

لم تتوقف داليا. عيناها المدربتانِ على الملاحظةِ، بحكمِ دراستها للطبّ، تلتقطانِ التفاصيلَ التي لا يراها الآخرون. لاحظتْ أن إطارَ البابِ الخشبيّ لم يكنْ سليماً تماماً. هناكَ أثرٌ واضحٌ، شقٌّ عموديٌّ بطولِ الدرفةِ اليمنى، كأنّ البابَ قد فُتحَ بالقوةِ ذاتَ ليلةٍ، أو كأنّ أحدهمْ قد اقتحمَ الغرفةَ بعنفٍ. لم يكنْ هذا الشقُّ قديماً، بل جديداً، أثرهُ طازجاً على الخشبِ الباهت، وكأنّهُ صُرخةٌ صامتةٌ تُخبرُ عن عنفٍ ما.

تجمّدَ الدمُ في عروقِ داليا. "هل هذاَ معقولٌ؟" تساءلتْ في سرّها. "إذا انتحرتْ، فلماذا يُخلعُ البابُ بالقوة؟ هل قاومت غفرانُ ؟" شعرت داليا أن تلكَ اللحظةُ هيَ نقطةَ التحولِ الحاسمةِ في رحلتها. لم تكنْ هذهِ مجردَ شكوكٍ، بل دليلاً ملموساً، صلباً، يُناقضُ كلَّ الروايةِ التي نُسجتْ. أخرجتْ هاتفها المحمولَ بسرعةٍ، كأنها تُنجزُ عمليةً جراحيةً دقيقة. رفعتْ هاتفها ببطءٍ، تُحاولُ أن تُخفي حركتها عن أيّ عينٍ قد تُراقبها. التقطتْ، خلسةً، صورةً للبابِ المخلوعِ، للخلعِ العموديّ الذي كانَ يُخبرُ عن قصةٍ أخرى، قصةٍ لم تُروَ بعد. وتطلعت من النافذة لتجد غرفة غفران مرتبة من الداخل،

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

حاولت تصوير ما يظهر من خلال النافذة. تلكَ الصور هيَ أولَ مسمارٍ في نعشِ كذبةِ زياد، وأولَ شعاعِ نورٍ يُضيءُ عتمةَ داليا. تلكَ الصورةُ هيَ وعدَها الصامتَ لغفران: لنْ تُدفني هكذا، لنْ تُدفنَ حقيقتكِ.

* * *

ما أن التقطتْ داليا الصورَ، حتى شعرتْ بقوةٍ جديدةٍ تتدفقُ في عروقها. لم تكنْ تلكَ القوةُ مجردَ غضبٍ أو حزنٍ، بل إحساساً بالمسؤوليةِ، وعهداً قطعتهُ على نفسِها. خرجتْ من البيتِ بخطواتٍ ثابتةٍ، تاركةً وراءَها صمتاً مُريباً وحزناً مُتآكلاً. في طريقِ عودتها إلى بيتها، استمرت كلماتُ زياد بمُلاحقتها كظلالٍ باردةٍ. لم يتوقفْ عن تكرارِ روايةِ "الانتحار" في كلِّ حديثٍ، في كلِّ مكالمةٍ، في كلِّ لمحةِ عين. كانَ يُروّجُ لها بثقةٍ مُفرطةٍ، كأنّهُ يُحاولُ إقناعَ نفسهِ بها قبلَ أن يُقنعَ الآخرين.

"غفرانُ فاشلةٌ في دراستها. ضغوطٌ نفسيةٌ عاشتها. نحنُ كعائلةٍ كناَ نحاولُ حمايتَها من نفسها." يقولُ ذلك للجميعِ، للمقربينَ والغرباءِ، للشرطةِ ولرجالِ الدين. تتكرر كلماته، تُصبحُ لازمةً، تُصبحُ حقيقةً زائفةً تُلوّثُ ذكرى غفران. لكنّ داليا تعرفُ غفران الحقيقية. غفرانُ طالبة متفوقة، شغوفة بالهندسةِ المعماريةِ، تتطلعُ إلى بناءِ عالمٍ أجمل، لا إلى هدمِ حياتها. فتاة واعية، مُثقفة، صاحبة رأيٍ لا تخشى قوله. كيفَ يمكنُ لزيادٍ أن يُشوّهَ صورتَها هكذا، أن يُلصقَ بها تهمةَ الفشلِ والضعف؟

"ماذا لو كانتْ الحقيقةُ أعمقَ؟" هَمَستْ داليا لنفسها، وهيَ

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

تُشاهدُ صور البابِ المخلوعِ وغرفة غفران من الداخل على شاشةِ هاتفها. "ماذا لو إن زياد هوَ مهندس كلّ هذا؟" الفكرةُ كافية لتُصيبَها بالرعب، لكنّها لم تستطعْ أن تُبعدَها عن رأسها.
أخبرتها غفران بإلحاح زياد عليها في أن تتزوج العمارتلي. إنه يريدها زوجة رابعة. "العمارتلي لا يمكن مقاومة طلباته، أنت تعرفين سلطته وسطوته". زيادُ، الأخُ الأكبرُ، الذي يُفترضُ أن يكونَ حامياً، تحوّلَ فجأةً إلى المشتبهِ بهِ الأول. صورةُ الحبلِ، والتي ستتكشفُ لاحقاً، تبدأُ بالتشكّلِ في خيالِها، رغمَ أنها لم ترَها بعد.

هل تُطيقُ الحقيقةُ أن تُسجنَ في تقرير مُزوّر، بينما هناكَ روحٌ أخرى تستعدُّ لتفكّكَ محتوياته؟ أم أنّ كلَّ كذبةٍ تُدفنُ هيَ بذرةٌ لثورةٍ تُعلنُ ميلادَها من تحتِ الركام، لتُعيدَ للضحيةِ سردَها المسروق؟

* * *

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

3

كيف لظلٍّ أن يُلقي بظلهِ على حقيقةٍ ناصعةٍ كشمسِ النهار؟ في مدينةٍ اعتادتْ على مواراتِ أحزانها تحتَ الركام، أصبح سؤالُ غفران المعلقِ كمشنقةٍ بلا حبلٍ، ومروحةٍ تدورُ في فراغٍ، يئنُّ في روحِ داليا. أيتها الأوراقُ التي لم تُحرق، والأرقامُ التي لم تُزوّر، هل أنتمُ الوثيقةُ الوحيدةُ التي لم تطأها أقدامُ الكذب؟ أم أن كلَّ بصمةٍ رقميةٍ، كلَّ إشراقةِ عقلٍ، هيَ خيطٌ مرئيٌّ في شبكةِ سرٍّ، تُشعلُ لهيبَ الشكِّ في قلبٍ يرفضُ الصمت؟

* * *

تمتدّ شوارع بغداد أمام داليا كشرايينَ متعبةٍ في جسدٍ أنهكه الزمن. الخريفُ، بعباءتهِ الرماديةِ المثقّلةِ بالندوب، يعكسُ حالةَ روحها؛ كآبةٌ لا تُطاق، وصمتٌ يلفُّ كلَّ شيءٍ ككفنٍ ثقيل. لم تكنْ عودةً عاديةً إلى البيت. كلُّ خطوةٍ كانتْ تُثقلها صور وأخبار الجنازةِ التي جرتْ على عجلٍ، وكلماتُ زياد الباردةِ التي اخترقتْ قلبها كشظايا جليد. "انتحارٌ بسببِ الفشلِ الدراسيِّ والضغوطِ النفسيةِ." تلكَ هيَ الروايةُ التي بدأَ زيادُ في نسجها بإتقانٍ بارعٍ، يُردّدها على مسامعِ كلِّ من التقاه، كأنهُ يُروّضُ حقيقةً جامحةً لتُوافقَ قالباً جاهزاً.

عادتْ داليا إلى شقة عائلتها المتواضعةِ والتي تسكنها مع والدتها في منطقةِ المنصور، تاركةً وراءَها حيَّ الفضلِ الذي

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

بدا لها هذهِ المرةَ كقبرٍ مفتوحٍ ابتلعَ صديقتها وأسرارَها. فتحتْ البابَ، لتستقبلها رائحةُ الهدوءِ المعتادِ، لكنه هدوءٌ لم يكنْ مألوفاً هذهِ المرة، بل صار صمتاً مُخيفاً، يتردّدُ صداهُ في أركانِ الغرفةِ الخاليةِ كأنّهُ صدى صرخةٍ بعيدةٍ. ألقتْ داليا حقيبتها على الأريكةِ بتعبٍ، ثمّ اتجهتْ نحو النافذةِ، تُحدّقُ في السماءِ البغداديةِ المُغبرّة، حيثُ الشمسُ تُحاولُ عبثاً أن تخترقَ ستارَ الغبارِ والهباب المتصاعد بسبب دخانِ المولداتِ الكهربائيةِ التي لا تتوقفُ عن الزئيرِ، كأنها آلهةٌ بدائيةٌ تُعلنُ سلطتَها على المدينةِ. وما تنتجه عوادم مئات آلاف السيارات.

صورةُ البابِ الخشبيّ المخلوعِ في غرفةِ غفران لا تزالُ محفورةً في عقلها، كبصمةِ جريمةٍ لا يُمكنُ محوها. ذلكَ الخلعُ العموديُّ الغامضُ في الإطارِ الأيمن للباب، الذي لم يُلاحظهُ أحدٌ غيرها، كانَ يُصرخُ بأسئلةٍ لا تزالُ دونَ إجابة. "هل تُقاتلُ منتحرةٌ حتى يُخلعَ بابُ غرفتها؟" بدأ هذا السؤالُ الذي بدأَ في أعماقِ روحها كشجرةٍ ظلّيةٍ، تُلقي بظلالها على كلِّ كلمةٍ قالها زياد، وعلى كلِّ نظرةٍ باردةٍ رأتها في عينيه. ثمّ جاءَ خبر الشيخِ الذي رفضَ الصلاةَ على غفران، كصوتِ ريحٍ باردةٍ تزيدُ من قسوةِ المشهد. "لا يمكنني إمامةُ الصلاةِ على المنتحر." كلماتٌ حوّلتْ غفران من ضحيةٍ إلى مُدَانة، ومن فتاةٍ إلى وصمةِ عارٍ.

لكنّ داليا تعرفُ غفران أخرى. غفران التي تملأُ حياتَها بالنقاشاتِ الساخنةِ حولَ العدالةِ والحريةِ، الفتاةَ التي ترسمُ مدناً فاضلةً على أوراقِها، وتُحاربُ الظلمَ بابتسامةٍ ساخرةٍ وذكاءٍ حادٍّ. تذكرتْ كيفَ تشتكي غفرانُ، دائماً، من "سرديات الشرفِ" التي تُكبّلُ النساءَ في المجتمعِ العراقي،

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

وكيفَ تُخطّطُ لمشروعٍ بحثيٍّ جريءٍ عن "أشكال ودوافع العنف في تقارير الانتحار ورمزيته". "فشلٌ دراسيٌّ؟" استهزأتْ داليا بالكلمةِ في سرّها، كأنها تُطلقُها في فضاءٍ مُحكمِ الإغلاقِ. غفرانُ، الطالبةُ المتفوقةُ، النجمةُ اللامعةُ في كليةِ الهندسةِ المعمارية، هل يُمكنُ أن تنتحرَ بسببِ الفشلِ؟ ذلكَ التناقضُ هوَ الشرارةَ الأولى التي أشعلتْ في داليا رغبةً جامحةً في البحثِ عن الحقيقة. لم يكنْ مجردَ شكٍّ، بل وجدته إيماناً راسخاً بأنّ روحَ غفران أعمقَ من أن تُدفنَ تحتَ ركامِ هذهِ الكذبةِ السخيفة. ثلاث سنوات مع معرفتها بغفران، لم تلاحظ أي ملمح لليأس في حديثها، في آرائها. ربما لم تلمس داليا شخصاً محباً للحياة مثل غفران.

جلستْ داليا على كرسيِّ مكتبها، يدها تتلمّسُ سطحَ المكتبِ الخشبيِّ الباردِ، ثمّ وصلتْ إلى هاتفها المحمول. لم تكنْ تبحثُ عن مواساةٍ، بل عن إجاباتٍ. كلُّ جسدِها يُصرخُ بالرفضِ، يرفضُ هذا المصيرَ الذي لُفَّتْ بهِ صديقتها. تعرفُ أن طريقَ البحثِ سيكونُ محفوفاً بالمخاطرِ، وأنّها ستُواجَه بقوىً أكبرَ منها بكثير، لكنها لم تستطعْ أن تُخْرِسَ صوتَ غفران الذي بدأَ يُدوّي في داخلها، صوتٌ يُطالبُ بالعدالةِ، وبالسرديةِ المسروقة. الساعةُ تُشيرُ إلى قبل الغروبِ، وضوءُ الشمسِ بدأَ يخبو خلفَ المباني الشاهقةِ التي كانتْ تبدو لها هذهِ المرةَ كشواهدَ صامتةٍ على مدينةٍ لم تعدْ تُفرّقُ بينَ الحقيقةِ والوهم. فتحتْ جهازَ الحاسوبِ المحمولِ، كانتْ أصواتُ المفاتيحِ تُصدرُ إيقاعاً خافتاً في صمتِ الغرفة، كأنها تُعلنُ عن بدايةِ رحلةٍ جديدةٍ، رحلةٍ ستُعيدُ لغفران صوتَها الذي سُرقَ.

* * *

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

كانَ جهازُ الحاسوبِ المحمولِ، بضوئهِ الأزرقِ الخافت، يُلقي بوهجٍ باهتٍ على وجهِ داليا المتعب. يداها ترتجفانِ قليلاً وأصابعها تُدخل بياناتِ الدخولِ. لم يكنْ الأمرُ مجردَ تسجيلِ دخولٍ، بل صار عبوراً إلى عالمٍ آخر، عالمٍ تتألّقُ غفرانُ فيهِ كنجمةٍ، بينما يُحاولُ زيادُ إطفاءَ نورها. كلُّ نقرةٍ على لوحةِ المفاتيحِ تُشعلُ شرارةً من الأملِ المُتَوخّى والخوفِ المُباغتِ في قلبها. "ماذا لو كانتْ روايتهم صحيحةً؟" تساءلتْ في سرّها للحظةٍ، لكنّ صوتَ غفران الداخليِّ قوى، يُذكّرها بتفوقها، بذكائها، بغيرتِها على العلمِ والمعرفة.

استغرقتْ داليا بضعَ لحظاتٍ لتُعثرَ على صفحةِ غفران الشخصيةِ في منصةِ الفيسبوك. كانتْ الواجهةُ زرقاءَ فاتحةً، وعليها صورةٌ لغفران وهيَ تبتسمُ ابتسامةً عريضةً، عيناها تلمعانِ ببريقٍ من الذكاءِ والحياة. رأت في تلكَ الصورةُ صفعةً قاسيةً على وجهِ زياد وادعاءاته الواهية. كيفَ لهذهِ الروحِ المضيئةِ أن تُتهمَ بالفشلِ؟ لم تكنْ تلكَ صورةَ فتاةٍ يائسةٍ على شفيرِ الانتحار، بل صورة قائدة، مُلهمة، مُفعمة بالأملِ والطموح.

بدأتْ داليا تتصفحُ منشورات غفران حول نشاطها الأكاديميّ بعنايةٍ شديدةٍ. كانت تنشر معلومات عن كلُّ مقررٍ دراسيٍّ ونتائجها الدراسية، كلُّ مشروعٍ، كلُّ علامةٍ كانتْ تُروي قصةً مختلفةً تماماً عن تلكَ التي حاولَ زيادُ أن يفرضَها على الجميع. وجدت أن غفرانُ قد حققتْ درجاتٍ استثنائيةً في كلِّ الموادِ. مادةُ "التصميمِ المعماريِّ المتقدّم" حصلتْ فيها على 95%. "تاريخُ العمارةِ العراقيةِ الحديثة"

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

93%. بحث حول "مفاهيمِ الاستدامةِ في البناء" 94%. الأرقامُ تتوالى، تتحدثُ بصوتٍ واضحٍ لا يحتملُ التأويل، كأنها شهادةٌ حيةٌ تُفنّدُ كلَّ الأكاذيب.

ثمّ وصلتْ إلى السجلِّ الأكاديميِّ للسنة الدراسيّة الأخيرة التي تسبق التخرج، الفصلِ الذي يُصرُّ زيادُ على أنهُ سببُ "فشلِها". تتسع عيناها وتشعر بصدمةٍ واعتزازٍ في آنٍ واحد. المعدلُ التراكميُّ للسنة كانَ 92%. اثنانِ وتسعون بالمائة! كيفَ يمكنُ لفتاةٍ بهذا التفوقِ أن تُتهمَ بالفشلِ؟ كيفَ يُمكنُ لأخٍ أن يُلوّثَ سمعةَ أختهِ بهذا الشكلِ الوحشيِّ؟ تلكَ اللحظةُ هيَ الفصلُ الأخيرُ في روايةِ "الانتحارِ الفاشل" التي حاكها زيادُ، والفصلُ الأولُ في روايةِ البحثِ عن الحقيقةِ التي ستقودُها داليا.

شعرتْ داليا بمزيجٍ من الغضبِ المقدسِ والفرحةِ الحزينة. الفرحةُ لأنّها اكتشفتْ حقيقةَ غفران المتألقة، والغضبُ لأنّ هذهِ الحقيقةَ حاولَ أحدُهم طمسَها. بدأتْ تُقلّبُ في الملفِّ، تُبحثُ عن أيِّ تفاصيلَ أخرى. وجدتْ قسمَ "المشاريعِ البحثية". هناكَ إشارةٌ إلى "مشروعِ تخرجٍ مبتكرٍ" تعملَ عليه في عامها الدراسي الأخير بعنوانِ "تكييفُ الأنماطِ المعماريةِ البغداديةِ التقليديةِ لتحدياتِ المناخِ الحديثِ والنسيجِ الاجتماعيِّ المتغير." غفرانُ مُلهمةٌ حقاً، دائماً ما كانتْ تُفكّرُ خارجَ الصندوق، تُحاولُ إيجادَ حلولٍ معماريةٍ لا تُراعي الجانبَ الجماليَّ فحسب، بل تُلامسُ أيضاً روحَ المدينةِ واحتياجاتِ سكانها.

لم يكنْ هذاَ مجردَ مشروعٍ أكاديميٍّ عاديٍّ، بل يُعبّرُ عن

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

عمقِ رؤيةِ غفران وقدرتِها على الربطِ بينَ العمارةِ والمجتمعِ والإنسانية. ترى غفران في كلِّ حجرٍ قصةً، وفي كلِّ تصميمٍ فلسفةً. "هذا ليسَ فشلاً، يا زياد!" همستْ داليا بصوتٍ خافتٍ، كأنها تُخاطبُ شبحَ أخٍ غائبٍ. "هذاَ هوَ قمةُ النجاح، قمةُ الإبداعِ، قمةُ الشغفِ الذي حاولْتَ أنتَ ورفاقُكَ أن تدفنوهُ معها."

تدركُ داليا أن هذهِ الأرقامَ، هذهِ المشاريعَ، هذهِ البصماتَ الرقميةَ لذكاءِ غفران، هيَ الخيطُ الأولُ الذي ستقومُ بنسجهِ لفكِّ لغزِ مقتلها. لم تكنْ الحقيقةُ مُعلّقةً بحبلٍ، بل كانتْ مُخبأةً في أثيرِ الشبكةِ العنكبوتيةِ، تنتظرُ من يجرؤُ على البحثِ عنها، على استخراجها، على إعلانها بصوتٍ عالٍ في عالمٍ يفضلُ الصمتَ. داليا، صديقةُ الروحِ، مستعدةٌ لأن تكونَ هيَ هذاَ الصوتَ. استنسخت صور للشاشة لجميع ما كانت تنشره غفران على صفحتها. وحفظت روابط منشوراتها على ملف مستقل.

* * *

لم تترددْ داليا لحظةً. كانتْ عيناها تُحدّقانِ في رقمِ هاتفِ الدكتورةِ إيمانَ المشرفةِ على مشروعِ تخرجِ غفران. الدكتورةُ إيمانُ، تلكَ المرأةُ القويةُ ذاتُ الصوتِ الرخيمِ والنظرةِ الثاقبة، وتُعتبرُ منارةً في كليةِ الهندسة، تُدافعُ عن طلابها وتُشجّعُ الإبداعَ الحقيقي. تعلم داليا أن الدكتورةَ إيمانَ هيَ الوحيدةُ التي تستطيعُ أن تُلقي الضوءَ على الزوايا المظلمةِ من حياةِ غفران الأكاديميةِ والبحثية.

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

ترددتْ داليا قليلاً قبلَ الاتصالِ، ليسَ خوفاً، بل احتراماً لحزنِ الدكتورةِ إيمانَ على طالبةٍ تعتبرها بمثابةِ ابنـةٍ لهـا. لكنّ الواجبَ أقوى من أيِّ تردد. ضغطتْ على زرِّ الاتصالِ، و انتظرت، ويدُها ترتجفُ قليلاً. رنَّ الهاتفُ بضعَ مراتٍ قبلَ أن يُجيبَ صوتٌ مُتعبٌ، لكنه يحملُ ذاتَ القوةِ والوقارِ الذي عرفتهُ داليا.

"أهـلاً يـا داليـا... كنـتُ أعـرفُ أنـكِ ستتصـلينَ." قـالتْ الدكتورةُ إيمانُ بصوتٍ خافتٍ، كأنها تقرأُ أفكارَها.

"مسـاءُ الخـيرِ، دكتـورة. آسـفةٌ عـلى إزعاجـكِ في هـذاَ الوقتِ، لكنّ الأمرَ لا يحتملُ التأجيلَ."

"لا بأسَ، يا ابنتي. ما الذي تُريدينَ معرفته؟"

"كلُّ شـيءٍ، دكتـورة. كـلُّ شـيءٍ يخـصُّ غفـران. زيـادُ، أخوها، يُصرُّ عـلى أنّهـا انتحـرتْ بسـببِ الفشـلِ الدراسـيِّ. لكنني... رأيتُ علاماتِها. رأيتُ مشـروعَها. إنهـا أسـطورةٌ، دكتورة."

تنهدتْ الدكتورةُ إيمانُ تنهيدةً عميقةً، خرجتْ منها كلُّ آلامِ الأيامِ الماضيةِ. "أسطورةٌ حقاً، يـا داليـا. غفـرانُ شـمعةٌ لا تُطفأ. لم يكنْ هناكَ أيُّ فشـلٍ دراسـيٍّ، بـل العكـسُ تمامـاً. غفرانُ تتألّقُ دائما. معدلُها في السنة الماضية 92% لم يكنْ مفاجأةً لـي. غفران من أذكى الطالباتِ اللواتي مررنَ عـليَّ في حياتي المهنيةِ. تُفكّرُ بطريقةٍ مختلفةٍ، تُرى العالمَ بعيونٍ لم تُفسدها المفاهيم الشائعة في مجتمعنا حاليا."

توقفتْ الدكتورةُ قليلاً، ثمّ تابعتْ بصوتٍ حزينٍ: "مشروعُ

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

تخرجها، يا داليا، ليس مجردَ مشروعٍ. بل روحَها، فلسفتَها. تُخطّطُ لتصميمِ مجمّعاتٍ سكنيةٍ تُعيدُ الروحَ إلى الأحياءِ القديمةِ في بغدادَ ، تُراعي الخصوصيةَ الثقافيةَ والاجتماعيةَ، لكنْ برؤيةٍ عصريةٍ تُتيحُ للمرأةِ مساحتها الخاصة، وللشبابِ فضاءاتهم الحرة. عارضت الأبراجَ الشاهقةَ التي لا تُراعي هويةَ المدينةِ، وتدعو إلى بناءِ مستدامٍ يُحترمُ فيهِ الإنسانُ والأرضُ والتاريخُ."

"مشروعُها يتجاوزُ العمارةَ. ترى في الفضاءِ المعماريِّ انعكاساً للفضاءِ الاجتماعيِّ والسياسيِّ. قالت لي: 'دكتورة، نحنُ لا نبني جدراناً فقط، نحنُ نبني حيوات، نبني علاقات، نبني مستقبلاً.' رؤيتها عميقةً لدرجةِ أنها أحياناً تُخيفني. تُخيفني إن كانت ستستطيع تنفيذ أفكارها."

"تُخيفكِ؟ لماذا، دكتورة؟" سألتْ داليا، وقلبُها يخفقُ بشدةٍ، تشعرُ بأنها على وشكِ اكتشافِ سرٍّ أعمقَ بكثير.

"تُخيفني لأنّها تُلامسُ جوهرَ المشكلةِ في مجتمعنا، يا داليا. لم تكن تخشى الحقيقةَ. مشروعُها يُسلّطُ الضوءَ على أنّ النسيجَ الاجتماعيَّ في بغدادَ قد تمزّقَ، وأنّ العمارةَ التقليديةَ في حال استمرارها، رغمَ جمالِها، أصبحتْ تُكبّلُ الأفرادَ، خصوصاً النساءَ، داخلَ جدرانٍ اجتماعيةٍ غيرِ مرئيةٍ. تُطالبُ غفرانُ بفضاءاتٍ تُتيحُ للناسِ حريةَ الحركةِ والتعبيرِ الاجتماعي دونَ أن تُجبرَهم على التمردِ على هويتهم. بدا ذلكَ المشروعُ جريئاً جداً، وقد أثارَ بعضَ التحفظاتِ من أساتذةٍ آخرينَ، لكنها دائماً ما كانتْ تدافعُ عنه بشغفٍ لا يُصدّق."

توقفتْ الدكتورةُ إيمانُ، وأخذتْ نفساً عميقاً، كأنها تستجمعُ

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

شجاعتَها لبوحٍ أخيرٍ، لسرٍّ كانتْ غفرانُ قد ائتمنتها عليه. "ولكنْ... لم يكنْ ذلكَ هوَ كلَّ شيءٍ، يا داليا. كانتْ غفرانُ تعملُ على بحثٍ آخرَ، بحثٍ لم تكنْ تُخبرُ عنه أحداً غيري، وكذلك الدكتورَ عبدَ الحليمِ البصريِّ المتخصص في علمِ الاجتماعِ الجنائيِّ."

"بحثٌ؟ ما هوَ، دكتورة؟" كانتْ داليا بالكادِ تستطيعُ أن تتنفس، تشعرُ بأنّ كلَّ خيطٍ كانَ ينفكُّ أمامها، وأنّ الصورةَ الكبرى بدأتْ تتشكلُ ببطءٍ مُخيف.

"كانَ بعنوانِ: 'أشكال ودوافع العنف في تقارير الانتحار ورمزيته: دراسةٌ تحليليةٌ لسرديات الشرفِ والمخارجِ الرسميةِ لتبريرِ قتلِ النساء'. عاشت غفرانُ مهووسةً، بحقّ، بهذهِ الفكرةِ. تُؤمنُ بأنّ الكثيرَ من حالاتِ الانتحارِ المبلغِ عنها، خاصةً بينَ الشاباتِ، ليستْ سوى غطاءٍ لجرائمِ قتلٍ، تُلبّسُ لباسَ الانتحارِ لتُحفظَ بهِ ما يُسمى 'شرفَ العائلةِ' أو لتُخْفَى بهِ جرائمُ وجنايات وقسم منها مرتبط بقضايا فسادٍ واعتداءات جسدية."

كلماتُ الدكتورةِ إيمانَ سقطتْ على داليا كصاعقةٍ. "العنفُ الرمزيُّ... تقاريرُ الانتحارِ... قتلُ النساء." لم تخبرها غفران عن هذا البحث، صحيح أنها طلبت منها عدة مرات على متابعة مدونتها على موقع ووردبريس للمدونات الشخصية، لكنها لم تعتقد أن غفران ستطور مدونتها لتصبحا بحثا واسعا حول قضية النساء المنتحرات. يبدو أن غفرانُ عملت بسرية وهي ترى ما لم يرَهُ أحد، تُحاولُ فكَّ شفرةِ مجتمعٍ يدفنُ حقيقةَ نسائهِ تحتَ أكوامٍ من الصمتِ والخوفِ. تذكرتْ

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

داليا مدونةَ غفران السريةَ التي تُحلّلُ فيها "قصصَ النساءَ المفقوداتِ".

"كانتْ تجمعُ الحالاتِ، يا داليا. تُقارنُ بينَ الرواياتِ الرسميةِ وشهاداتِ الأقاربِ والأصدقاءِ. تُحلّلُ الصيغَ اللغويةَ المستخدمةَ في تقاريرِ الشرطةِ والطب الشرعيِّ والأخبار في الصحافة المطبوعة وعلى الإنترنت، ووسائل التواصل الاجتماعي، وتُبيّنُ كيفَ يتمُّ التلاعبُ بالألفاظِ لتُحوّلَ الضحيةَ إلى مجرمةٍ، ولتُبرّئَ الجلادَ. تُشيرُ التقارير إلى أنّ 'الفشلَ الدراسيَّ' أو 'العلاقاتِ العاطفيةَ أو الابتزاز' غالباً ما تكونُ الأسبابَ المعلنةَ في حالاتِ الانتحارِ هذه، بينما الحقيقةُ أبعدُ من ذلكَ بكثير."

توقفتْ الدكتورةُ إيمانُ عن الكلامِ، وأخذتْ تتنفسُ بصعوبةٍ. "غفرانُ على وشكِ كشفِ شبكةٍ كاملةٍ من التسترِ والتواطؤِ، لا تشملُ الأعراف العشائرية فَحسب، بل تمتدُّ إلى أجهزةِ الشرطةِ والقضاءِ وحتى بعضِ المؤسساتِ الدينيةِ. آمن غفران بأنّ هذهِ السرديات هيَ جزءٌ من نظامٍ اجتماعيٍّ يُمارسُ العنفَ الرمزيَّ والفعلي على المرأةِ، فيُحرمُها حتى من الحقِّ في أن تُروى قصتُها الحقيقيةُ بعدَ موتها."

همستْ داليا بصوتٍ خافتٍ "هل هذاَ لهُ علاقة بقضايا فساد محددة؟"

"لا أستطيعُ أن أقولَ ذلكَ على وجهِ اليقينِ، يا داليا،" أجابتْ الدكتورةُ إيمانُ، بصوتٍ بدأَ يحملُ نبرةً من الحذر. "لكنْ ما أعرفهُ هوَ أنّ غفران عاشت وهي مُهَدّدةً، وتشعرُ بالمراقبةِ في أيامها الأخيرة. بدتْ مُتحفظةً جداً، تُخبرُني

منشورات «ألف باء AlfYaa»

بأنّها ترسلُ لي نسخاً احتياطيةً من أبحاثها بشكلٍ دائم إلى بريدي الإلكترونيّ بعد تشفيرها، وأنّها تخشى على حياتها. قالتْ لي: 'إذا حدثَ لي شيءٌ، يا دكتورة، فتأكدي أنّني لم أنتحر. سأكونُ قد اختُطفتُ من حياتي.' "

اخترقت هذهِ الكلماتُ كشفراتٍ حادةٍ قلبَ داليا. "اختطفتُ من حياتي." تنبأت غفرانُ بمصيرها، وحاولتْ أن تتركَ لها دليلاً، بصمةً تُضيءُ طريقَ البحثِ عن العدالة. "أينَ هيَ هذهِ الأبحاثُ، دكتورة؟ هل يُمكنُني الاطلاعُ عليها؟" سألتْ داليا، وكانتْ نبرةُ صوتها تُعلنُ عن بدايةِ حربٍ لم تُعلنْ بعد.

* * *

بعدَ انتهاءِ المكالمةِ مع الدكتورةِ إيمانَ، شعرتْ داليا بعبءٍ ثقيلٍ على صدرها، لكنه عبءٌ مصحوبٌ بقوةٍ هائلةٍ. لم يعدْ الأمرُ مجردَ شكوكٍ، بل أصبحَ حقيقةً دامغةً. غفرانُ لم تنتحرْ. غفرانُ قُتلتْ، وقُتلتْ لأنها كانتْ تُحاولُ كشفَ الحقيقةِ. كلماتُ الدكتورةِ إيمانَ تدورُ في رأسها كشريطٍ سينمائيٍّ لا يتوقف: "أشكال ودوافع العنف في تقارير الانتحار ورمزيته"، "شبكةُ تزويرِ الشهاداتِ والفساد"، "اختُطفتُ من حياتي". كلُّ كلمةٍ كانتْ تُرسمُ ملامحَ مؤامرةٍ أكبرَ بكثيرٍ مما تصوّرتْ.

نظرتْ داليا إلى شاشةِ حاسوبها المضيئةِ، ثمّ إلى هاتفها المحمول. لم يعدْ لديها خيارٌ سوى أن تُقاومَ. أن تُعلنَ، بصوتٍ عالٍ وواضحٍ، أن زياداً كاذبٌ، وأن غفران لم تكنْ فاشلةً، بل كانتْ بطلةً تُحاولُ تحريرَ صوتِ الحقيقةِ. لكنّها

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

تدركُ أن المواجهةَ المباشرةَ قد تكونُ خطيرةً، وقد تُعرّضُ حياتَها للخطر، خاصةً بعدَ ما سمعتهُ من الدكتورةِ إيمانَ عن شعورِ غفران بالمراقبةِ. "يجبُ أن أكونَ حذرةً،" همستْ لنفسها. "يجبُ أن أُبقيَ هويتي مخفيةً، على الأقلِّ في البداية."

تعلمُ داليا أن هذهِ ليستْ نهايةَ القصة، بل البداية الحقيقية. لنْ تُتركَ غفرانُ تُدفنُ تحتَ ركامِ الكذبِ والتزييف. فغفرانُ لم تكنْ مجردَ اسمٍ، بل رأتْ فيها رمزاً لجيلٍ كاملٍ، جيلٍ يحاولُ أن يكسرَ قيودَ الماضي، أن يفتحَ نوافذَ جديدةً على شمسِ الحقيقة. في تلكَ اللحظةِ، ومنذ أن حدّقت عيناها في صورةِ البابِ المخلوع، قررتْ داليا أن تصبحَ صوتَ غفران، أن تُصبحَ منبرَها الذي سيُعلنُ للعالمِ أجمعَ أن الحقيقةَ لا تُشنقُ بحبلٍ، ولا تُدفنُ تحتَ ركامِ كذبٍ، بل تُعلّقُ على جدار الزمان، تنتظرُ من يجرؤُ على رفعِ رأسهِ ليرى ما لم يجرؤْ أحدٌ على رؤيته. تلكَ هيَ اللحظةَ التي وُلدتْ فيها مدونةٌ جديدةٌ، لا تحملُ اسمَها، بل تحملُ صرخةً تُدوّي في فضاءٍ رقميٍّ لا يعرفُ حدوداً.

قررتْ داليا أن تبدأَ من حيثُ كانتْ غفرانُ قد بدأتْ معها المعركةَ ضدّ السرديةِ المزيّفة: الأرقامُ، والوقائعُ. كانَ أفضلُ مكانٍ للبدءِ هوَ العالمُ الرقميُّ، حيثُ يُمكنُ للأصواتِ أن تتجاوزَ الحواجزَ الجغرافيةَ، وأن تصلَ إلى آذانٍ قد لا تُصغي في الواقع. فتحتْ داليا حساباً جديداً على منصةِ فيسبوك، باسمٍ مستعارٍ لم يكنْ لهُ أيُّ ارتباطٍ بها، "غفران البغدادية". بحثتْ عن اسمٍ يشير مباشرة إلى القضية، اسمٍ يُذكّرُ بالهويةِ العراقيةِ الأصيلةِ التي تُحاولُ القوى الظلاميةُ طمسَها.

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

ترتجف يداها قليلاً وهما تكتبانِ أولَ منشورٍ لها. لم تُردْ أن تُطلقَ اتهاماتٍ مباشرةً، بل أن تُثيرَ الشكَّ، أن تُشعلَ جذوةَ التساؤلِ في عقولِ الناسِ. تعرفُ أن الرأيَ العامَّ، أحيانا، هوَ أقوى سلاحٍ ضدّ التسترِ والتزييف. صاغتْ المنشورَ بعنايةٍ فائقةٍ، كلماتُها كشفراتٍ تُشيرُ إلى حقائقَ دونَ أن تُفصحَ عنها بشكلٍ مباشر.

"في زمنٍ تُدفنُ فيهِ الحقائقُ تحتَ عباءةِ الشرفِ الزائف أو تحت راية الفشل، أو الأمراض النفسية، وتُنسجُ الأكاذيبُ حولَ أرواحٍ لم تكنْ تستحقُّ إلا المجدَ، أُعلنُ لكم، وبكلِّ أسفٍ وحزنٍ، أنّ شمعةً من بغدادَ قد انطفأتْ، لا بفعلِ الريحِ، بل بفعلِ أيدٍ قذرةٍ حاولتْ أن تُطفئَ نورَ العقلِ والتميز. قيلَ لنا إنّ غفران، تلكَ الفتاةَ الموهوبةَ التي كانتْ ترسمُ مدناً فاضلةً على أوراقها، قد انتحرتْ بسببِ الفشلِ الدراسيِّ. ولكنّ الأرقامَ لا تكذبُ، يا سادة. الأرقامُ تُخبرُنا أنّ معدلَها الدراسيَّ في السنة الأخيرة كِانَ 92%. اثنانِ وتسعون بالمئة! هل هذهِ هيَ علامةُ الفشلِ؟ أم أنّها علامةُ الذكاءِ الذي أزعجَ البعضَ؟ البحثُ عن الحقيقةِ بدأَ للتو. ترقبوا المزيد."

أرفقتْ داليا المنشورَ بصورةِ غفران التي كانتْ تبتسمُ في ملفها، نفسُ الصورةِ التي تُذكّرُها بروحِ غفران المتألقة. أشارت إلى عشرات الأسماء في المنشور، ومنهم أصدقاء مشتركون أو أصدقاء لغفران، وأضافت أسماء منظمات مجتمع مدتي عراقية كانت تتواصل معها. كتبت هاشتاغ #غفران_لم_تنتحر و #غفران_قُتلت وضغطت زر "نشر"،

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

وقلبُها يخفقُ بشدةٍ، كأنها تُلقي حجراً في مياهٍ راكدةٍ، تنتظرُ ردَّ الفعل. لم تمضِ سوى ساعات حتى بدأتْ التفاعلاتُ تتوالى. بعضُها كانَ يحملُ علاماتِ الإعجابِ والذهول، وبعضُها كانَ يحملُ تساؤلاتٍ، لكنّ الأهمَّ هوَ أنّ الرسالةَ قد وصلتْ. بدأتْ المنشوراتُ تُشاركُ، والتعليقاتُ تتزايدُ.

"كلامٌ خطيرٌ!" كتبَ أحدهم.

"من هيَ هذهِ الفتاة؟ وما دليلها؟" سألَ آخر.

"إذا كانَ هذاَ صحيحاً، فجريمةٌ أخرى تُضافُ إلى سجلِّ جرائم الوطنِ الملطخِ بالدمِ!" علّقتْ فتاةٌ أخرى.

لكنّ الصدى لم يدمْ طويلاً. ففي عراقٍ تُراقبُ فيهِ الأيديولوجياتُ والمليشياتُ كلَّ حركةٍ رقميةٍ، وتُخْرَسُ فيهِ الأصواتُ المعارضةُ بسرعةٍ، لم يكنْ لمنشورِ داليا الأول وقلاقة منشورات إضافية مزودة بالوثائق وإجابات عن بعض تساؤلات المتابعين، أن يعيشَ طويلاً. بعدَ أقلَّ من أسبوع ، تلقتْ داليا إشعاراً من فيسبوك. "تمَّ تعليقُ حسابكِ بسببِ انتهاكِ معاييرِ المجتمع." كم كان عدد التبليغات بحيث يقوم فيسبوك بتعليق الحساب؟ كانتْ تلكَ هيَ النهايةَ السريعةَ لبدايةٍ جريئةٍ. لم يكنْ الأمرُ مفاجأةً لداليا، بل كانَ تأكيداً على ما قالتهُ الدكتورةُ إيمانُ: أنّ هناكَ شبكةً من التسترِ والتواطؤِ، شبكةً تُراقبُ العالم الرقميَّ كما تُراقبُ شوارعَ بغدادَ، وتُطفئُ كلَّ صوتٍ يُحاولُ أن يُشعلَ جذوةَ الحقيقةِ.

شعرتْ داليا بخيبةِ أملٍ، لكنّها لم تُهزم. كانَ تعليقُ حسابها هوَ الدليلَ الأخيرَ الذي أكّدَ لها أنّها على الطريقِ الصحيح. "إنهم يخافون." همستْ لنفسها. "يخافون من الحقيقةِ التي

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

تُحاولُ أن تُحرّرَ نفسها." أدركتْ داليا أنّ المعركةَ لم تكنْ مجردَ بحثٍ عن قاتلٍ، بل لأن المعركة بدأتْ حرباً على السرديةِ الحقيقية، حرباً على الذاكرةِ الجماعيةِ، حرباً على روحِ مدينةٍ تُحاولُ أن تتنفسَ بعدَ عقودٍ من القمعِ والظلام. زرعت غفرانُ بذورَ هذهِ المعركةِ، وداليا على وشكِ أن تُرويها بماءِ إصرارها. لم يكنْ تعليقُ الحسابِ نهايةً، بل مجردَ بدايةٍ لفصلٍ جديدٍ من المقاومةِ الرقميةِ، فصلٍ ستُعلَنُ فيهِ #من_قتل_غفران؟ كصرخةٍ مدويةٍ من أجل أن تتغير وجهَ بغدادَ.

هل تُطمسُ الحقيقةُ بمجردِ تعليقِ حسابٍ، أم أن كلَّ إغلاقٍ لبابٍ هوَ فتحٌ لألفِ نافذةٍ، تُطلُّ منها عيونٌ مُتلهفةٌ على سرديةٍ أخرى، سرديةٍ تُصرُّ على الانبعاثِ من رمادِ النسيان؟

هذا ما حصل، فقد بدأت آلاف الحسابات الشخصية تتناول قضية غفران، وطالب الكثيرون بإعادة تشريح الجثة وطعن البعض بتقرير الشرطة- وتقرير الطبيب الشرعي، والبعض من المطلعين والمهتمين ذكروا تفاصيل عشرات القضايا المشابهة والغامضة.

* * *

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

منشورات «ألف باء AlfYaa»

4

هل في غياهبِ الكلماتِ المحبوكةِ بالقداسةِ يتوهُ الحقُّ، أم أن للشكِّ همساً خفياً يمزّقُ ستائرَ اليقينِ المعلّب؟ في بغدادَ، حيثُ يتآكلُ كلُّ معنى تحتَ ثقلِ الرمادِ، لا يُشنقُ الجسدُ وحده، بل تُشنقُ الحقيقةُ بأربطةٍ من السرديات الجاهزة. فمن يجرؤُ على رفعِ حجابِ التفسيرِ المقدسِ ليكشفَ العظامَ العاريةَ للحقيقة؟ ومن يملكُ عدسةَ السؤالِ لتُبصرَ ما خفيَ عن العيونِ في زمنٍ أعمتهُ الضغوطُ والخوف؟

* * *

سكونُ شقةِ عائلة داليا في المنصورِ أثقلُ من أيِّ صخبٍ. عقاربُ الساعةِ تستديرُ ببطءٍ قاسٍ، كأنها تسخرُ من سرعةِ الأحداثِ التي عصفتْ بحياتها. بعدَ تعليقِ حساب "غفران البغدادية" على فيسبوك، شعرتْ بأنّ جدراناً غيرَ مرئيةٍ قد ارتفعتْ حولها، تُحاصرُ صوتها قبلَ أن يُعلنَ عن وجوده. رسالتُها الأولى، التي كشفتْ عن تفوّقِ غفران الدراسيّ ودحض مبرر الانتحار، قد وُئدتْ في مهدها، كأنّ حراساً رقميينَ يترصّدونَ كلَّ محاولةٍ لكسرِ الصمت. أغلقتْ داليا شاشةَ حاسوبها بتعبٍ، لكنّ الظلامَ الذي حلَّ على الشاشةِ لم يُطفئْ لهيبَ الأسئلةِ في رأسها.

هواءُ بغدادَ في تلكَ الأمسيةِ مُثقلٌ بأكثرَ من مجردِ غبارِ الخريف. ومُحمّلٌ بترانيمَ من السردياتِ الجاهزةِ، تُبثُّ عبرَ

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

مكبراتِ الصوتِ من المساجدِ، وعبرَ شاشاتِ الهواتف والكومبيوترات. صوتُ الشيخِ عبد المهدي يصدحُ في كلِّ مكانٍ، يخترقُ النوافذَ المغلقةَ، ويتسللُ إلى آذانِ المستمعينَ كأنهُ صوتُ الحقيقةِ المطلقة. أعلن مشبّهاً الانتحارَ بـ"معصيةٍ كبرى"، و"خروجٍ عن الملةِ"، وأشارَ إلى "تفسّخِ الأخلاقِ" و"الابتعادِ عن الفطرةِ السليمةِ" كأسبابٍ جذريةٍ لمثلِ هذهِ الظواهر. لم يذكرْ غفران بالاسمِ، لكنّ كلَّ كلمةٍ صارت خنجراً مسموماً يُطعنُ روحها، ويُرسّخُ وصمةَ العارِ حولَ اسمها.

مرّتْ داليا قربَ مقهىً صغيرٍ في شارعِ الروّادِ، حيثُ تُتابعُ مجموعةٌ من الشبابِ بحماسٍ لقاءً تلفزيونياً للشيخِ عبد المهدي. تُحدّقُ الأعينُ في الشاشةِ بانبهارٍ، والرؤوسُ تهتزُّ بالموافقةِ على كلِّ كلمةٍ يُلقيها. شعرتْ داليا بقشعريرةٍ باردةٍ تسري في جسدها. لم يكنْ هذا مجردَ رأيٍ، بل كانَ سجناً فكرياً يُبنى حولَ عقولِ الناس، يُحكمُ إغلاقَ الأبوابِ على أيِّ تساؤلٍ أو شكّ. "سرديةُ الفشلِ الدراسيِّ" و"الضغوطِ النفسيةِ" التي روّجَ لها زياد، وجدتْ سنداً قوياً في هذا الخطابِ الدينيِّ المتشدد، الذي لم يكنْ يرى في غفران إلا "عبرةً" أو "مثالاً يُحتذى بهِ في الابتعادِ عن الشرِ".

"الفتنةُ المتنقّلةُ." تذكرتْ داليا كيفَ وصفَ الشيخُ عبد المهدي الفتياتِ "المتحرراتِ" في إحدى خطبهِ السابقةِ، وكيفَ ربطَ بينَ "الانفتاحِ" و"الضياعِ". صارت غفران، بذكائها وجرأتها ورفضها للقيودِ الاجتماعية، تجسيداً لكلِّ ما يُحاربُهُ الشيخُ عبد المهدي في خطاباته. هذهِ الروايةُ مُريحةً

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

للكثيرينَ؛ تضعُ اللومَ على الضحيةِ، وتُعفي المجتمعَ من مسؤوليةِ البحثِ عن الأسبابِ الحقيقيةِ، وتُبرّرُ التسترَ على الجرائمِ باسمِ الدينِ والشرف ومائة سبب غير حقيقي. أدركتْ داليا حجمَ المعركةِ. لم تكنْ تُقاتلُ قاتلاً فردياً، بل تُقاتلُ عقليةً جماعيةً، منظومةً متكاملةً من الأفكارِ والعاداتِ والتقاليدِ التي تُفضّلُ الصمتَ على الحقيقة.

ينبضُ قلبُ داليا بقوةٍ، لكنها لم تكنْ نبضاتِ خوفٍ، بل نبضاتِ تحدٍّ. تعلّقتْ روحُ غفران في مروحةِ السقفِ، لكنّ صوتَها لم يمتْ. بل يدوّي في داخلِ داليا، يُطالبُها بالبحثِ، بالرفضِ، بالمقاومةِ. تعرفُ أن طريقَها سيكونُ شاقاً، وأنها قد تواجهُ العزلةَ والتهديدَ، لكنّ ذكرى غفران وحقيقتها أقوى من أيِّ خوف. قررتْ أن تكونَ هيَ "العدسةَ" التي ستُكبّر وتُكشفُ بها "الحقيقةُ المتخفّيةُ" خلفَ "حجابِ التفسيرِ المقدسِ" و"كهفِ الصدى" الذي بناه الشيخُ عبد المهدي، ووسائل الإعلام التي دخلت على القضية ونشرت عشرات التفاصيل المفبركة.

* * *

لم تُضطرَّ داليا للبحثِ طويلاً عن خطابِ الشيخِ عبد المهدي. شاشاتُ التلفازِ في كلِّ مكانٍ، تُبثُّ سمومَ كلماته. يُجيدُ الرجلُ فنَّ الخطابةِ، يُحرّكُ المشاعرَ، يُلامسُ أوتارَ الخوفِ والغيظِ الكامنةِ في النفوس. جلستْ داليا أمامَ التلفازِ في غرفتها، تُحدّقُ في وجهِ الشيخِ الذي بدا وكأنهُ تمثالٌ من الرخام، صلبٌ، باردٌ، تُشَعُّ من عينيهِ بريقُ اليقينِ المطلق. يرتدي عمامةً بيضاءَ ناصعةً تُحيطُ بوجهه الذي امتلأَ

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

بتقاطيعَ حادةٍ، ولحيةً كثةً تُوحي بالوقارِ. لكنّ كلَّ هذاَ يُخفي وراءَهُ عقلاً يُسيطرُ عليهِ الجزمُ والقطعيةُ.

"يا أيها الناس!" صدحَ صوتُهُ أمام الميكروفونات. "أصبحتْ مدينتُنا، بغدادُ العريقةُ، مرتعاً للفتنِ! صرناَ نرى بناتِنا، شقائقَ أرواحنا، يركضْنَ خلفَ سرابِ الحضارةِ الغربيةِ، خلفَ أوهامِ الحريةِ الزائفةِ، فيُلقينَ بأنفسهنّ في مهاوي الردى! الانتحارُ، يا عبادَ اللهِ، ليسَ قضاءً وقدراً، بل هوَ جحودٌ بنعمِ اللهِ، وخيانةٌ للروحِ التي أودعها اللهُ في أجسادِنا!"

يتحدثُ بحماسٍ مُفرطٍ، يلوّحُ بيديهِ العريضتينِ في الهواءِ، كأنهُ يُوجّهُ ضرباتٍ غيرَ مرئيةٍ لعدوٍّ خفيٍّ. "وما الذي يدفعُ الفتاةَ المسلمةَ إلى الانتحارِ؟" سألَ سؤالاً بلا انتظارِ إجابةٍ، ثمّ أجابَ بنفسهِ بنبرةٍ قاطعةٍ: "إنهُ الفشلُ! فشلٌ في الدينِ، فشلٌ في الأخلاقِ، فشلٌ في تحمّلِ المسؤوليةِ! حينما تتعلّقُ روحُ المرأةِ بزينةِ الحياةِ الدنيا، وتُنسى الآخرةُ، حينما يُصبحُ النجاحُ الدنيويُّ هوَ معيارَ الوجودِ، وحينما تُخالفُ عاداتِ أهلِها وتقاليدِ عشيرتها، فماذا تكونُ النتيجةُ؟ تكونُ الضياعُ، ثمّ يكونُ الخلاصُ المزعومُ في حبلٍ يُشنقُ عليهِ الجسدُ المُذنبُ ، وتُشَنقُ معه روحُ الطهارةِ!"

استمرَّ الشيخُ في خطابهِ، يُضفي على كلماتهِ رداءً من التأويلاتِ الدينيةِ التي لا تقبلُ الجدل. "حذّرنا مراراً وتكراراً من الاختلاطِ، من الانفتاحِ، من التعريّ الفكريّ الذي يُصيبُ قلوبَ بناتِنا. وحينما تقعُ الفاجعةُ، يخرجُ علينا نفرٌ من أصحابِ الأهواءِ، من دعاةِ الفتنةِ، ليُشكّكوا في قضاءِ اللهِ

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

وقدره، وليُحاولوا تبرئةَ الميتِ بباطلِ أقوالهم، ويُلقوا باللائمةِ على المجتمعِ الطاهرِ النقيّ. هؤلاءِ همُ الفتنةُ الحقيقيةُ! هؤلاءِ همُ من يُحاولونَ تشويهَ سمعةِ أبناءِ العشائرِ الغيارى، الذينَ لا يرضونَ بالعارِ ولا يقبلونَ بالفسادِ!"

لم يكنْ يذكرُ اسمَ غفران، لكنّ كلَّ كلمةٍ خرجتْ موجّهةً إليها، كأنها رصاصةٌ تُطلقُ على روحٍ قد رحلتْ بالفعل. يُشيرُ بوضوحٍ إلى زياد وأمثالهِ من "الغيارى" الذينَ "حاولوا حمايةَ شرفِ عائلاتهم". يزداد قرف داليا وهي تُشاهدُ اللقاءَ. أدركتْ كيفَ يُمكنُ للكلماتِ أن تُصبحَ سياطاً تُجلدُ بها الضحيةُ عشرات المرات، وكيفَ يُمكنُ للخطابِ الدينيّ أن يُصبحَ أداةً لتبريرِ الظلمِ وتثبيتِ الأكاذيب. يُعيدُ الشيخُ عبد المهدي صياغةَ الروايةِ، يُحوّلُ القتلَ إلى انتحارٍ، والضحيةَ إلى مُذنبةٍ، والجلادَ إلى حامٍ للشرف.

ترصد عينا داليا كلَّ حركةٍ على الشاشةِ. لاحظتْ كيفَ أن الخطابَ لم يكنْ موجّهاً للفتياتِ فحسب، بل كانَ يُهاجمُ ضمناً أيَّ صوتٍ مُعارضٍ، أيَّ شكٍّ، أيَّ محاولةٍ للبحثِ عن الحقيقة. "نحنُ لا نحتاجُ إلى الأبحاثِ الغربيةِ التي تُفسّرُ كلَّ شيءٍ بالعقدِ النفسيةِ والضغوطِ الاجتماعيةِ! نحنُ لدينا دينُنا الحنيفُ، هوَ مرجعيتُنا، وهوَ نورُنا الذي يُضيءُ لنا الطريقَ! من يُشكّكُ في ذلكَ، فليُراجعْ إيمانَه!" هذهِ كلماتُ موجهةً بوضوحٍ إلى الشيخِ الدكتورِ كريمِ الذي كانَ قد بدأَ يطرحُ أسئلةً حولَ الموضوعِ.

شعرتْ داليا بضيقٍ في صدرها. شكّلَ خطابُ الشيخِ عبد المهدي "كهفَ صدى" مُحكمَ الإغلاقِ، حيثُ تتكررُ الأفكارُ

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

نفسها، وتتعزّزُ القناعاتُ المسبقةُ، ولا يُمكنُ لصوتٍ مختلفٍ أن يخترقَ جدرانَه. يقدّمُ عبد المهدي حلولاً بسيطةً لمشكلاتٍ معقدةٍ، ويُلصقُ التهمَ كما تُطبع الأختام على الأوراق لتصبح أوراقا رسمية. يُحرّضُ على الصمتِ، ويُدينُ التساؤلَ، ويُبارِكُ التسترَ باسمِ حمايةِ القيمِ. تُشاهدُ داليا في صمتٍ مُطبقٍ، لكنَّ روحَها كانتْ تشتعلُ بالغضبِ. فهمتْ الآنَ لماذا علّقَ حسُابها بهذهِ السرعة. هذاَ الخطابُ هوَ الحائطَ الذي يُبنى حولَ الحقيقة، ويُحكمُ إغلاقَ الأبوابِ على أيِّ ضوءٍ قد يتسللُ إلى الداخل. خلق كلام عبد المهدي ليلةً باردةً، لكنَّ النارَ التي اشتعلتْ في روحِ داليا قادرة على إذابةِ جليدِ الخوفِ واليأس.

* * *

لم تُطفئْ كلماتُ الشيخِ عبد المهدي لهيبَ البحثِ في روحِ داليا، بل زادتْها اشتعالاً. فإذا كانَ كهفُ الصدى يضيقُ على الحقيقة، فلا بدَّ من البحثِ عن نافذةٍ أخرى، عن صوتٍ آخر، يُمكنهُ أن يمزّقَ هذاَ الصمتَ المطبق. تعرفُ رجالَ دينٍ آخرينَ، يُؤمنونَ بالبحثِ والاستنارةِ، يُدركونَ أنّ الدينَ أعمقُ من أن يُستخدمَ سيفاً للظلمِ والتستر.

في الأيامِ التي تلتْ تعليقَ حسابها، وفي ظلِّ ضغطِ الخطابِ المتشدد، بدأتْ تُلاحظُ منشوراتٍ متزايدة، هنا وهناك، تُشيرُ إلى آراءٍ مختلفةٍ ويطالب قسم منها بإجراء تشريح للجثة بعد أن أصبح الشك برواية الانتحار يتزايد يوماً بعد يوم، وبعض علماءَ دينٍ يُطالبونَ بالتحقيقِ قبلَ إصدارِ الفتوى أو رأي ديني. كانَ اسمُ الشيخِ الدكتورِ كريمِ

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

يتكررُ بينَ تلكَ المنشورات. الشيخُ الدكتورُ كريمُ، أستاذُ الفقهِ في جامعةِ بغدادَ، ويُعرفُ بعقلانيتهِ واجتهادهِ، وبقدرتهِ على الربطِ بينَ النصِّ والواقعِ دونَ التضحيةِ بأيٍّ منهما.

تصفحت داليا إحدى المجموعاتِ الخاصة على تيليغرام، وهيَ مجموعةٌ صغيرةٌ للطلابِ الذينَ يُعجبونَ بأفكارِ الشيخِ الدكتورِ كريم. وجدتْ إعلاناً عن محاضرةٍ مغلقةٍ للشيخِ عبرَ تطبيقِ "زووم" الجديد، بعنوانِ "مِنْ فقهِ الشبهةِ إلى فقهِ اليقينِ: ضرورةُ التحقيقِ الشرعيِّ في قضايا الموتِ الغامض". العنوانُ وحدهُ كفيلٌ بأن يُشعلَ جذوةَ الأملِ في قلبِ داليا. هذاَ صوتَ كانتْ تبحثُ عنه، وقد يكون شمعةً تُضيءُ ظلامَ كهفِ الصدى. من يريد حضورها عليه مراسلة إيميل محدد للحصول على كلمة المرور

في مساءِ اليومِ التالي، جلستْ داليا أمامَ شاشةِ حاسوبها، وارتدتْ سماعاتِ الرأسِ، وكأنها تستعدُّ لجلسةِ استماعٍ سريةٍ. أدخلت كلمةِ المرور، والعددُ محدود، كأنّ الحقيقةَ في هذاَ الزمنِ أصبحتْ سلعةً نادرةً تُباعُ سراً. ظهرَ وجهُ الشيخِ الدكتورِ كريمِ على الشاشةِ. مظهرُهُ مختلفاً عن الشيخِ عبد المهدي. كانَ يرتدي ملابسَ بسيطةً، ولا يضع شيئاً على رأسه ، لكنّ عينيهِ كانتا تحملانِ بريقاً من الحكمةِ والهدوءِ. لم يكنْ يتحدثُ بحماسٍ مُفرطٍ، بل بصوتٍ رصينٍ، هادئٍ، لكنه يخترقُ الروحَ بعمقِ كلماته.

بدأَ الشيخُ الدكتورُ كريمُ محاضرتهُ بالبسملةِ والصلاةِ على النبيِّ، ثمّ قالَ بنبرةٍ واضحةٍ: "يا أيها الطلابُ الأعزاءُ، أيها الباحثون عن الحقيقةِ. إنّ دينَنا، دينَ الإسلامِ، هوَ دينٌ يحترم

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

العلمِ، دينُ البحثِ، دينُ العدلِ. وما منْ قضيةٍ أشدَّ حساسيةً من قضايا الموتِ، خاصةً عندما تُحيطُ بها الشبهاتُ والتساؤلاتُ. ليسَ من ديننِا أن نُسرعَ في إصدارِ الأحكامِ، وأن نُطلقَ الأوصافَ على الناسِ دونَ تحقيقٍ وتمحيصٍ. قالَ اللهُ تعالى في كتابهِ الكريم: *يا أيها الذينَ آمنوا إذا جاءكم فاسقٌ بنبأٍ فتبيّنوا أن تُصيبوا قوماً بجهالةٍ فتصبحوا على ما فعلتم نادمين*."

كانَ الشيخُ يُحلّلُ الآيةَ، يُبيّنُ أنّ التبيُّنَ والتحقيقَ هوَ أساسُ العدلِ في الإسلام. "كيفَ لنا أن نقبلَ بروايةٍ واحدةٍ، وأن نُكفّنَ الحقيقةَ بعباءةِ اليقينِ الزائف، بينما هناكَ ألفُ سؤالٍ يترددُ في أروقةِ الوجدانِ؟ إنّ الشبهةَ في الموتِ، خاصةً عندما يكونُ هناكَ غموضٌ حولَ طريقةِ الوفاةِ أو دوافعها، تُوجبُ علينا، شرعاً وعقلاً، أن نُعمّقَ البحثَ، وأن نستقصيَ الأدلةَ، وأن لا نُغلّبَ العاطفةَ أو التقاليدَ على نورِ العقلِ والحقيقةِ."

تحدثَ الشيخُ الدكتورُ كريمُ عن حالاتٍ تاريخيةٍ مشابهةٍ، لنساءٍ اتُّهمنَ بالانتحارِ، ثمّ تبيّنَ لاحقاً أنهنّ قُتلنَ. "وصلتنا أنباءٌ عن حالاتٍ سابقةٍ، في مدنٍ عراقيةٍ أخرى، لفتياتٍ متفوقاتٍ، يُشهدُ لهنّ بالأخلاقِ والتميزِ، ثمّ تُعلنُ وفاتهنّ 'انتحاراً' لأسبابٍ واهيةٍ كـ'الفشلِ الدراسيّ' أو 'ضغوطٍ نفسيةٍ'. ثمّ تُكشفُ الحقيقةُ بعدَ حينٍ، لتبيّنَ أنّ الأمرَ لم يكنْ انتحاراً، بل كانَ جريمةَ قتلٍ تُرتكبُ باسمِ الشرفِ الزائفِ، أو للتسترِ على فسادٍ أكبرَ."

لم يذكرْ الشيخُ غفران بالاسمِ، لكنّ كلَّ كلمةٍ كانَ يقولها

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

كانتْ تُشيرُ إليها بوضوحٍ لا يقبلُ اللبس. كانتْ داليا تُشاهدُ وتُصغي بانتباهٍ شديدٍ، تُسجلُ النقاطَ الأساسيةَ في دفترها. كلماتُ الشيخِ كبلسمٍ يُخففُ من ألمِها، وكضوءٍ يُضيءُ لها الطريق. قدّمَ حججاً دينيةً ومنطقيةً لا يُمكنُ دحضها بسهولة. "إنّ التسترَ على جريمةٍ، مهما كانَ الدافعُ، هوَ جريمةٌ أخرى، بل هوَ خيانةٌ للهِ وللعدلِ وللإنسانيةِ. والقولُ إنّ المنتحرَ لا تجوزُ الصلاةُ عليهِ، هوَ قولٌ يخالفُ روحَ التسامحِ في ديننا. فالميتُ، مهما كانَ حالهُ، لهُ حرمتُهُ، وعلى المسلمينَ أن يُصلّوا عليهِ، وأن يدعوا لهُ بالرحمةِ والمغفرةِ، وأن لا يزيدوا على مصيبتهِ مصيبةً أخرى بوصمهِ بالعارِ دونَ دليلٍ قاطعٍ."

تحدثَ الشيخُ عن ضرورةِ إعادةِ النظرِ في دورِ الطبيبِ الشرعيّ والشرطةِ في تقاريرِ الوفاةِ، مُشدّداً على أهميةِ التشريحِ والمعاينةِ الدقيقةِ في حالاتِ الشبهةِ. "إنّ جسدَ الميتِ ليسَ ملكاً لعائلتهِ فحسب. إنهُ وثيقةٌ جنائيةٌ، وثيقةٌ تُخبرُ عن الحقيقةِ، وعن جريمةٍ قد تُرتكبُ. وحفظُ هذهِ الوثيقةِ وكشفُ أسرارها هوَ واجبٌ شرعيٌّ وقانونيٌّ وأخلاقيٌّ."

في نهايةِ المحاضرةِ، بداَ الشيخُ الدكتورُ كريمُ متعباً، لكنَّ عينيهِ كانتا لا تزالانِ تُشِعّانِ بالأملِ. "أعلمُ أن ما أقولهُ قد يُزعجُ البعضَ، وقد يُعرّضني للتهديدِ والشتائمِ. ولكنّ الحقيقةَ أغلى من روحي، والعدلَ أثمنُ من سلامتي. لنْ نتراجعَ عن قولِ الحقّ، لنْ نُخْرِسَ صوتَ العلمِ، لنْ نُغلقَ عدسةَ السؤالِ. فدينُنا ليسَ دينَ الظلامِ، بل هوَ نورٌ يُكشفُ الظلمَ، ويُضيءُ طريقَ العدالةِ. وغفرانُ، وكلُّ غفران، تستحقُّ أن تُروى قصتُها الحقيقيةُ، لا أن تُدفنَ تحتَ ركامِ الكذبِ والتسترِ."

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

شعرتْ داليا بانتعاشٍ روحيّ، كأنّ روحَها قد خرجتْ لتوّها من سجنٍ مُظلمٍ. منحها الشيخُ الدكتورُ كريمُ السندَ الشرعيَّ والمنطقيَّ الذي بحثَت عنه. لم تكنْ وحدها في هذهِ المعركةِ. كانَ هناكَ من يُؤمنُ بالحقِّ، من يُؤمنُ بأنّ الدينَ يجبُ أن يكونَ أداةً للعدلِ، لا للظلم. تلكَ المحاضرةُ هيَ "نسمة عدل" لروحِ داليا، كاشفةً لها عن طريقٍ جديدٍ للمقاومةِ، طريقٍ يُضيئه نورُ العقلِ والحقيقة.

* * *

بعدَ محاضرةِ الشيخِ الدكتورِ كريمِ، ومع تزايد اعتراض الكثير من المهتم على رواية الانتحار، شعرتْ داليا بأنّ عبئاً ثقيلاً قد انزاحَ عن صدرها، ليحلَّ محلّهُ إصرارٌ أقوى. لم تكنْ هذهِ مجردَ معركةٍ شخصيةٍ، بل حرباً موجهة ضد الوعيِ، على الذاكرةِ الجماعيةِ. تعرفُ الآنَ أنّ كلَّ صوتٍ يُحاولُ كشفَ الحقيقةِ سيُواجَهُ بالتشويهِ والتكذيبِ والتهديد. لكنها عثرتْ على حليفٍ روحيٍّ ومنطقيٍّ في كلماتِ الشيخِ المستنيرة.

تأمّلتْ داليا في غرفةِ غفران من جديد، لا بعينيْ الحزنِ والفقدانِ، بل بعينيْ الباحثةِ التي تُحلّلُ كلَّ التفاصيلِ. صورةُ البابِ المخلوعِ على هاتفها لم تعدْ مجردَ شكٍّ، بل أصبحتْ دليلاً أولياً يُشيرُ إلى عنفٍ ما. "إذا لم تنتحرْ، فكيفَ ماتتْ؟ ومن قتلها؟" كانَ هذاَ السؤالُ يدوّي في رأسها كنشيدٍ صامتٍ. كانتْ تعرفُ أنّ الأرقامَ الأكاديميةَ لغفران تُفنّدُ روايةَ الفشل، وأنّ أبحاثَها السريةَ حولَ "العنفِ الرمزيِّ في تقاريرِ الانتحارِ" تُشيرُ إلى دوافعَ خفيةٍ للقتلِ والتستر.

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

في تلكَ الليلةِ، بينما كانتْ داليا تُراجعُ ملاحظاتها وتُخططُ لخطواتها القادمة، سمعتْ رنينَ إشعارٍ خافتٍ من تطبيقِ بريدها الإلكترونيِّ القديمِ، الذي نادراً ما تستخدمهُ إلا للتسجيلِ في بعضِ المنتدياتِ المتخصصةِ. لم تتوقعْ شيئاً مهماً، لكنها فتحتْ البريدَ بتكاسلٍ. هناكَ بريدٌ إلكترونيٌّ جديدٌ، من عنوانٍ مجهولٍ تماماً، لا يحملُ اسماً، فقط حروفاً عشوائيةً. شعرت بقشعريرةٍ تسري في جسدها، وأحست مزيجاً من الفضولِ والخوف.

فتحتْ الرسالةَ؛ مختصرةً، غامضةً، لكنها اخترقتْ قلبها مباشرةً.

"الحبلُ الأبيضُ. لا تدفني ما لم تُحلّيه. واسألي عن 'أبو خالد'. الحقيقةُ لا تُشنقُ، بل تُعلّقُ رايتها في الهواءِ بانتظارِ من يرفعُ عينيهِ."

تجمّدَ الدمُ في عروقِ داليا. "الحبلُ الأبيض." كانتْ تلكَ هيَ الكلماتُ التي تكررتْ في ذهنها. الحبلُ. الحبلُ الجديدُ الذي أشارَ إليهِ زيادُ في سرعةٍ غيرِ مفهومة. "أبو خالد". من هوَ أبو خالد؟ لماذا عليهِ أن تعرفَ عنه؟ تلكَ الرسالةُ هيَ الإشارةَ التي تنتظرها، الخيطَ الماديَّ الأولَ في شبكةٍ معقدةٍ من الأسرار. لم تكنْ مجردَ كلماتٍ، بل أصبح مفتاحاً، خريطةً، نوراً جديداً يُضيءُ لها طريقَ البحثِ.

شعرتْ داليا بنبضةِ أدرينالينَ قويةٍ تسري في جسدها. أصبحتْ المعركةُ أكثرَ واقعيةً، وأكثرَ خطورةً. لم تكنْ غفرانُ تُشيرُ إلى حبلٍ وهميٍّ في مدونتها، بل إلى حبلٍ حقيقيٍّ، إلى أداةٍ للجريمةِ تُركتْ كي تُنسى. "لا تدفني ما لم

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

تُحلّيه." رددت هذهِ الكلماتُ كأمرٍ مقدسٍ لها، كوصيةٍ من روحِ غفران. أدركتْ داليا أنّ البحثَ عن "أبو خالد" هوَ الخطوةُ التاليةُ الحاسمةُ، هوَ الغوصُ في عمقِ الجريمةِ نفسها، بعدَ أن كانتْ تُحاربُ في مجالِ السرديات والأفكارِ. خيّمَ الظلامُ على بغدادَ، لكنّ في قلبِ داليا كانَ نورٌ جديدٌ قد أُشعل، نورٌ سيقودها إلى حلِّ لغزِ الحبلِ الأبيضِ، لغزٍ سيُغيّرُ وجهَ الحقيقةِ إلى الأبد.

هل يكفي خيطٌ واحدٌ لفكِّ أسرارٍ نُسجتْ في عتمةٍ موحشة؟ أم أنّ كلَّ حبلٍ يُحلُّ، يكشفُ عن ألفِ عقدةٍ أخرى، تُخبّئُ وجوهَ الجلادينَ في مرآةِ الأيامِ الغابرة، وتُعلّقُ مصيرَ المدنِ على مروحةٍ لا تتوقفُ عن الدوران؟

* * *

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

5

كيف يُمكن للمرآة أن تكذب، وللصورةِ أن تخون، بينما الحقيقةُ، عاريةً، تتأرجحُ في فراغِ الأثير؟ هل يكفي أن تُعلقَ الصورةَ في فضاءٍ رقميٍّ، لتكسرَ جدرانَ كهفِ الصدى، أم أن كلَّ عينٍ ترى ما تُمليهِ عليها ذاكرتُها المسمومةُ، أو يُمليهِ عليها حبلٌ من الكلماتِ المأجورة؟ في بغدادَ، حيثُ التاريخُ تعادُ كتابتهُ كلَّ يومٍ بحبرِ الدمِ، لكلِّ صورةٍ ألفُ وجهٍ، ولكلِّ حقيقةٍ ألفُ مُنْكِرٍ.

* * *

صباحٌ آخرُ من صباحاتِ بغدادَ المتربةِ، لكنّهُ حملَ في طيّاتهِ ثقلاً مختلفاً بالنسبةِ لنرمين. الصحفيةُ، التي لا تُكلّفُها الابتسامةُ السريعةُ في وجهِ الجنديِّ عندَ كلِّ نقطةِ تفتيشٍ أيَّ عناءٍ، تُدركُ أنَّ عملَها لا يبدأُ ولا ينتهي عندَ الكاميرا. يبدأُ في قلبِ المدينةِ المتعبةِ، في عيونِ الناسِ، في الرائحةِ الكريهةِ للمياهِ الراكدةِ التي تختلطُ بدخانِ المولداتِ، وفي صمتِ الجدرانِ العتيقةِ التي تُخفي وراءَها قصصاً أكثرَ مما تُظهر. تشقُّ سيارةُ الأجرةِ طريقها بصعوبةٍ في حيِّ الفضلِ، شوارعُ ضيقةٌ، بيوتٌ متلاصقةٌ، نوافذُ صَدئةٌ تُطلُّ على حياةٍ لا تتوقفُ عن الصراع. تُراقبُ نرمين كلَّ تفصيلةٍ بعينٍ صحفيةٍ مُدرّبةٍ، تلتقطُها عدستُها الداخليةُ قبلَ أن تلتقطها كاميرتُها الصغيرةُ المخبأةُ في حقيبتها. لم تكنْ مجردَ

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

صحفيةٍ، بل صحفية تستطيع متابعة واقعٍ يتشظّى، تُحاولُ أن تُعيدَ ترتيبَ أجزائهِ ليُخبرَ حقيقةً أخرى.

"تقريرٌ عن إعادةِ الإعمارِ في مناطقِ بغداد الشعبية." كانتْ هذهِ هيَ الذريعةُ الرسميةُ التي حملتْها نرمين من قناتها الفضائيةِ. ابتسامةٌ عريضةٌ، ومنديلُ رأسٍ يُغطي جزءاً من شعرها المُلوّنِ، وبضعةُ أسئلةٍ روتينيةٍ عن الأضرارِ ووعودِ الحكومة. كانَ كلُّ ذلكَ قناعاً شفافاً، تُخفي وراءَهُ عزماً لا يلينُ على الغوصِ في قلبِ قصةِ غفران، القصةِ التي بدأتْ تتسربُ خيوطها عبرَ العالمِ الرقميّ. تابعتْ نرمين منشوراتِ داليا الأولى قبلَ أن تُعلّقَ وموجة مئات المنشورات التي نُشرت على وسائل التواصل الاجتماعي متعاطقة مع غفران وموتها، أو منددة بشخصية غفران وما فعلته، وتتبعّتْ همساتِ الشيخِ الدكتورِ كريمِ عبرَ مجموعاتٍ مغلقةٍ. غفرانُ، بالنسبةِ لنرمين، ليستْ مجردَ ضحيةٍ، بل أصبحت رمزاً لنساءٍ كُثرٍ في هذاَ البلدِ، نساءٍ تُشنقُ أحلامهنّ كلَّ يومٍ، وتُدفنُ حقائقهنّ تحتَ ركامِ السردياتِ الجاهزةِ.

وصلتْ سيارةُ الأجرةِ إلى زقاقٍ هادئٍ، حيثُ تنتظرُ داليا، شبه متخفيةً خلفَ عمودٍ كهربائيٍّ قديم. تُحدّقُ داليا في نرمين بعينينِ مُتوجّستينِ، يُغلّفهما خليطٌ من الأملِ والخوفِ. هذهِ هيَ المرةَ الأولى التي تلتقي فيها بشخصٍ يُشاركُها هذاَ الجنونَ بالبحثِ عن الحقيقةِ، شخصٍ يملكُ الأدواتِ والمواردَ التي تفتقرُ إليها. نزلتْ نرمين من السيارةِ، تتقدمُ بخطواتٍ واثقةٍ، ابتسامتُها لا تُفارقُ وجهَها، لكنّ عينيها بدأتا تمسحانِ المكانَ بحثاً عن أيّ عينٍ مُترصدةٍ. "صباحُ الخيرِ، هل أنتِ

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

الأستاذةُ نرمين؟" قالتْ داليا بصوتٍ خافتٍ، تكادُ لا تُسمعُ.

"أجل، أهلاً بكِ يا داليا." أجابتْ نرمين بنفسِ النبرةِ الهادئةِ، لكنّ عينَيها تُخبرانِ داليا بأنّ هناكَ عزماً لا يلينُ يختبئُ خلفَ هذاَ الهدوء. "يبدو أنّ إعادةَ الإعمارِ هنا تحتاجُ إلى جهودٍ استثنائيةٍ." قالتها بنبرةٍ ساخرةٍ خفيفةٍ، تُشيرُ إلى أكثر من مجردِ الجدرانِ المتصدّعة. سارتْ الفتاتانِ جنباً إلى جنبٍ، تتظاهرانِ بأنهما تتحدثانِ عن مشاكلِ الحيّ العمرانيةِ، بينما تخفقُ قلوبُهما بإيقاعٍ واحدٍ، إيقاعِ البحثِ عن الحقيقةِ.

أخبرتْ نرمين داليا عن كيفيةِ تتبعها لخيوطِ القصة، وكيفَ أن تعليقَ حسابِ داليا كانَ بمثابةِ تأكيدٍ لها بأنّ هناكَ شيئاً أعمقَ يُحاولونَ إخفاءَهُ. "كلما حاولوا إسكاتَ صوتٍ، كلما تأكدتُ أنّ هناكَ حقيقةً أكبرَ تُحاولُ التسللَ." قالتْ نرمين بنبرةٍ واثقةٍ. "ولدينا الآنَ ما يكفي من الشكوكِ لكسرِ هذاَ الصمت." عرضتْ داليا عليها صورةَ البابِ المخلوعِ في غرفةِ غفران، وأخبرتها روايةَ الشيخِ الذي رفضَ الصلاةَ على الجنازة، وخصوصاً، تفاصيلَ مكالمتها مع الدكتورةِ إيمانَ حولَ تفوقِ غفران الأكاديميّ وبحثها السريّ عن "أشكال ودوافع العنف في تقارير الانتحار ورمزيته".

تتسعُ عينا نرمين مع كلِّ تفصيلةٍ. تتجمعُ النقاطُ في رأسها. تُشكلُ شبكةً معقدةً من المعلوماتِ. "العنفُ الرمزيُّ... تقاريرُ الانتحارِ... هذاَ هوَ جوهرُ القضيةِ. ليسَ مجردَ انتحارٍ، بل حربٌ على القصة الحقيقية والتفاصيل المنسية في ظل هذه الحوادث وهجوم على السرديةِ، وعلى وعيِ النساءِ في هذاَ المجتمع. وغفرانُ عملت على كشفِها." تُدركُ نرمين حجمَ

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

المسؤوليةِ التي تقعُ على عاتقها. لم تكنْ هذهِ مجردَ قصةٍ تُنشرُ في نشرةِ أخبارٍ عاديةٍ، بل كانتْ قضيةً عامةً، قضيةَ تغييرٍ وعيٍ. "ماذا عن "أبو خالد"؟" سألتْ داليا، تُسلّمُ نرمين رسالةَ البريدِ الإلكترونيّ المجهولةِ التي تلقتها. قرأتْ نرمين الرسالةَ، وارتسمتْ على وجهها تعبيرٌ من الذهولِ والتركيز. "الحبلُ الأبيضُ... أبو خالد." همستْ. "هذاَ هوَ خيطُنا الذهبيُّ. الخيطُ الذي سيقودنا إلى قلبِ الشبكةِ."

* * *

لم يكنْ العثورُ على "أبو خالد" صعباً كما توقعتْ داليا، فقد كانَ اسمُه متداولاً بينَ سكانِ الحيّ القديمِ. "أبو خالد" صاحبُ الدكانِ الصغيرِ لبيعِ الأدواتِ واللوازم المنزليةِ، والذي تُراقبُ كاميرتُهُ داخل المحل وزقاقاً خلفياً، عادةً ما يكونُ مُتجاهلاً. توجهتْ نرمين وداليا إلى دكانِ أبي خالدٍ، الذي بدا وكأنهُ قطعةٌ من زمنٍ آخرَ، تزدحمُ فيهِ البضائعُ القديمةُ والجديدةُ، وتفوحُ منهُ رائحةُ الغبارِ والخشبِ العتيقِ. كانَ أبو خالدٍ رجلاً عجوزاً، وجههُ مُتعبٌ، وعيناهُ تحملانِ ذكرياتِ عقودٍ طويلةٍ من الصمتِ والترقبِ.

قدّمتْ نرمين نَفْسَها على أنها صحفيةٌ تُعدُّ تقريراً عن الحياةِ اليوميةِ في الحيّ القديمِ وإعادةِ الإعمارِ في مناطقِ بغداد الشعبية، وسألتْه عن التغييراتِ التي طرأتْ على المنطقةِ، وعن كيفيةِ تعاملِ الأهالي معَ الحالة الاقتصاديةِ. يتحدثُ أبو خالدٍ بصعوبةٍ، تُقطّعُ كلماتهِ سعلةٌ خفيفةٌ، لكنّهُ مُضيافاً، يحاولُ أن يُشاركَهما قصصاً بسيطةً عن حياةِ الحيّ. بينما تُجري نرمين حواراً سطحياً معهُ، راقبت داليا بعينيها الحادةِ

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

كلَّ زاويةٍ في الدكانِ، تبحثُ عن أيِّ شيءٍ قد يُثيرُ الشكّ، أو يُؤكدُ ما جاءَ في رسالةِ البريدِ الإلكتروني.

في لحظةٍ مناسبةٍ، وجّهتْ نرمين السؤالَ الذي أعدّتهُ بعنايةٍ: "هل تُخبرُنا يا أبا خالدٍ عن أبرزِ الأحداثِ الغريبةِ أو غيرِ المألوفةِ التي حدثتْ هنا مؤخراً؟ أيُّ شيءٍ خرجَ عن روتينِ الحيِّ الهادئ؟" لم تتوقعْ نرمين إجابةً فوريةً، لكنها لاحظتْ تغييراً طفيفاً في ملامحِ أبي خالدٍ. لمعةٌ من الخوفِ، أو ربما الحزنِ، مرّتْ عبرَ عينيهِ المتعبتينِ.

"أشياءٌ كثيرةٌ تحدثُ يا ابنتي." قالها بصوتٍ خافتٍ، وكأنهُ يُحادثُ نفسه. "أشياءٌ تُنسى، وأشياءٌ تُدفنُ في الصدورِ." ثمّ نظرَ إلى داليا نظرةً سريعةً، وكأنهُ يُحاولُ أن يستشفَّ شيئاً من ملامحها. تُدركُ داليا أن ذكرى غفران لا تزالُ طازجةً في أذهانِ الجميعِ، لكنّ الخوفَ بدا سيدَ الموقف.

الجارةُ العجوزُ، أمُّ حسن، التي همستْ لداليا في الجنازةِ عن "الغسلِ الناقصِ"، تُشاركُ في الحديثِ. تجلسُ على كرسيٍّ خشبيٍّ قديمٍ أمامَ الدكانِ، تُشاهدُ المارةَ بعينينِ مُتعبتينِ. عندما سمعتْ حديثَ نرمين، رفعتْ رأسها قليلاً. "الغريبُ يا ابنتي، أنّ الطيبينَ يُغادرونَ فجأةً، ويُتركونَ وراءَهم أسئلةً لا تُجاب." قالتْها بنبرةٍ تُوحي بأنها تحملُ سراً ثقيلاً. ثمّ نظرتْ إلى نرمين وداليا، عيناها تلتقيانِ بهما بنظرةٍ مُتوسّلةٍ، كأنها تُناشدُهما أن تُدركا ما لم تستطعْ هيَ قولهُ.

"غفران... كانتْ وردةَ الحيِّ." تابعتْ أمُّ حسنٍ، وكأنها تُحاولُ أن تُحرّرَ جزءاً من الذاكرةِ المحبوسةِ. "لا أصدّقُ ما

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

يقولونَ عنها. غفران تملأُ المكانَ حيويةً وضحكاً. كلُّ صباحٍ تُمرُّ من هنا، تُلقي علينا التحيةَ، وتشتري الخبزَ لوالدتها. تتكلمُ عن أحلامها في بناءِ مُدناً أجمل. فتاةٌ مثلُها، كيفَ لها أن تفعلَ ذلكَ؟" ارتجفَ صوتُ أمِّ حسنٍ وهيَ تتحدثُ، وظهرتْ في عينيها لمعةٌ من الدموعِ، تُعبّرُ عن حقيقةٍ مختلفةٍ، حقيقةٍ مُغايرةٍ لروايةِ "الفشلِ الدراسيّ" و"الضغوطِ النفسيةِ".

هذاَ هوَ ما تبحثُ عنهُ نرمين. شهادةٌ حيةٌ، صوتٌ من داخلِ الحيّ يُعارضُ السرديةَ الرسمية. "هل تتذكرينَ شيئاً غريباً حدثَ في الأيامِ التي سبقتْ وفاتها، يا أمَّ حسن؟" سألتْ نرمين بصوتٍ هادئٍ، تُحاولُ أن تُشجّعها على الكلام. ترددتْ أمُّ حسنٍ قليلاً، نظرتْ إلى أبي خالدٍ، وكأنهُ يُمكنهُ أن يمنعها من الكلام. لكنّ أبي خالدٍ حدّقَ في الأرضِ، وكأنهُ يُحاولُ أن يُخفي شيئاً. "ليسَ غريباً تماماً." قالتْ أمُّ حسنٍ، وأخذتْ نفساً عميقاً. "في وقت متأخر من المساءِ قبلَ يومِ وفاتها، رأيتُ زياد، أخاها، قادما بسرعة واشترى شيئاً من دكانِ أبي خالدٍ. لم يكنْ شيئاً عادياً. كانَ حبلاً أبيضَ، سميكاً. سألتهُ لماذا يُريدُ حبلاً بهذاَ الحجمِ، فضحكَ زيادُ ضحكةً قاسيةً، وقالَ لي: "لأصطادَ بهِ الحمامَ العنيدَ، يا أمَّ حسن!""، وذهب مستعجلا كما جاء.

توقفتْ أمُّ حسنٍ، وعادتْ إلى صمتها المُعتاد. عيناها تُشِعّانِ بتعبٍ، وكأنها أفرغتْ من روحها سراً أثقلها. "حبلٌ أبيضُ..." همستْ نرمين. "يُصطادُ بهِ الحمامَ العنيدَ." بدت تلكَ الكلماتُ كأحجيةٍ غامضةٍ، لكنّها تُشيرُ، أيضا، إلى شيءٍ

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

مُخيفٍ، شيءٍ يُجيبُ على رسالةِ البريدِ الإلكترونيّ المجهولةِ التي تلقتها داليا. التفتتْ نرمين إلى أبي خالدٍ، الذي ما زالَ يُحدّقُ في الأرضِ. "هل هذاَ صحيحٌ يا أبا خالدٍ؟ هل تذكرُ ذلكَ الحبلَ؟" سألتْه نرمين بنبرةٍ هادئةٍ لكنها حازمة. رفعَ أبو خالد رأسهُ ببطءٍ، عيناهُ التقيتا بعينيْ نرمين، عيناه تحملانِ اعترافاً صامتاً، مزيجاً من الخوفِ والندمِ. "أجل يا ابنتي. أذكرُه. اشتراهُ زيادُ في تلكَ الليلةِ. لم أكنْ أظنُّ... لم أكنْ أظنُّ أنّهُ سيكونُ لـ..." لم يُكملْ أبو خالدٍ جملتهُ، لكنّ المعنى كانَ واضحاً كضوءِ الشمسِ. هذهِ هيَ الحقيقةُ والدليل المادّي، الذي يربطُ زيادَ مباشرةً بالجريمةِ. كانتْ هذهِ هيَ بصمةَ الروحِ المحجوبةِ التي أصبحتْ الآنَ مرئيةً.

* * *

عادتْ نرمين وداليا إلى شقةِ داليا، قلبُيهما يخفقُان بشدةٍ، وعقلُيهما تعملُ بآليةٍ مُتَسارعةٍ. أصبحت شهادةُ أمِّ حسنٍ وأبي خالدٍ بمثابةِ القطعةِ المفقودةِ من أحجيةٍ مُعقّدةٍ. "الحبلُ الأبيضُ..." كررتْ داليا، وعيناها تُحدّقانِ في نرمين. "والضحكةُ القاسيةُ عن 'الحمامِ العنيدِ'." أدركتْ نرمين أن هذهِ ليستْ مجردَ جريمةِ عابرةٍ، بل كانتْ جريمةً مُخطّطاً لها، تستندُ إلى تصفيةِ حساباتٍ، وربما لتغطيةِ جريمةٍ أكبر، كما ألمحتْ إليهِ الدكتورةُ إيمانُ في حديثها عن بحثِ غفران السريّ.

"لدينا الآنَ أدلةٌ ماديةٌ، يا داليا." قالتْ نرمين، وصوتُها يحملُ نبرةً من الانتصارِ الحذر. "لكنّ هذاَ لا يكفي. نحتاجُ إلى ما هوَ أكثرُ من مجردِ شهادةٍ شفويةٍ. نحتاجُ إلى دليلٍ لا

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

يُمكنُ دحضهُ، دليلٍ سيُفجّرُ السرديةَ الرسميةَ، ويُثيرُ الرأيَ العامَ في هذاَ البلدِ الذي اعتادَ على الصمتِ." تُفكّرُ نرمين في خطوتها التاليةِ، وهدفُها ليسَ مجردَ فضحِ الجريمةِ، بل فضحُ المنظومةِ التي تسترُ عليها.

"كاميراتُ المراقبةِ في دكانِ أبي خالدٍ!" هتفتْ داليا فجأةً. "هو قالَ لي إنهُ يُراقبُ داخل المحل والزقاقَ الخلفيَّ بكاميرا، وأنّهُ يحتفظُ بالتسجيلاتِ لفترةٍ." لمعتْ عينا نرمين ببريقٍ من الأملِ. "هذاَ هوَ ما نحتاجهُ بالضّبطِ يا داليا! هذاَ هوَ المفتاحُ! إذا كانَ لدينا فيديو لزيادٍ وهوَ يشتري الحبلَ أو يحمله، فلنْ يستطيعَ أحدٌ أن يُنكرَ الحقيقةَ."

لم تمضِ سوى ساعاتٍ قليلةٍ، وبمساعدةِ محمود، الوسيطِ الإعلاميّ الشابِ الذي يربطُ نرمين بداليا، وبخبرتهِ التقنيةِ، وبعلاقته الوطيدة مع أبي خالد ومساعدته المستمرة في تركيب وإصلاح الكاميرا، ومتابعة تسجيلاتها. تمكّنتْ نرمين من الوصولِ إلى تسجيلاتِ كاميرا دكانِ أبي خالدٍ. العمليةُ مُعقّدةً، وتتطلبُ حذراً شديداً، فقد بدت الكاميراتُ قديمةً، والتسجيلاتُ غير واضحةٍ تماماً بسبب الغبار المتراكم على العدسات. لكنّ محمودَ المُتخصص في استعادةِ البياناتِ وتحسينِ جودتها، وبعدَ ساعاتٍ من العملِ المُضني، ظهرَ الفيديو. تعرضُ الشاشةُ لقطاتٍ مشوّشةً من مساءٍ مُظلمٍ قبلَ يومِ وفاةِ غفران. ثمّ، فجأةً، ظهرَ زيادُ. دخلَ إلى الدكانِ من البابِ الخلفيّ، شبه مُتخفٍ، يتحدثُ إلى أبي خالدٍ. مد يدهِ، وتناول حبلاً أبيضَ سميكاً. ملامحُ وجههِ واضحةٌ بما يكفي للتعرّفِ عليهِ، وحركةُ يديهِ وهوَ يُمسكُ بالحبلِ تُخبرُ عن نيّةٍ

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

خبيثةٍ، لا صيدَ حمامٍ. ضحكَ ضحكةً قصيرةً، يلفُّ الحبلَ في كيسٍ أسودَ، ويسدد سعره، ثمّ يغادرُ بسرعةٍ، كأنهُ ظلٌّ في الظلامِ.

شعرتْ داليا بقشعريرةٍ باردةٍ تسري في جسدها، مزيجاً من الرعبِ والارتياحِ. "فعلها." همستْ بصوتٍ بالكادِ يُسمعُ. "زيادُ هوَ القاتلُ. هوَ من علّقَ هذاَ الحبلَ لأختهِ." انهمرت الدموعُ من عينيها، دموعَ حزنٍ وغضبٍ على صديقتها التي وُئدتْ أحلامها، لكنّها، أيضاً، دموعَ انتصارٍ صغيرٍ، انتصارِ الحقيقةِ التي بدأتْ تُخرجُ رأسها من تحتِ الرماد.

"هذاَ هوَ ما نحتاجهُ." قالتْ نرمين، وعيناها تُشِعّانِ بتصميمٍ لا يلين. "سننشرُ هذاَ الفيديو، وسنكسرُ الصمتَ الذي يلفُّ قضيةَ غفران. وسنُعلنُ للعالمِ أجمعَ أن الحقيقةَ لا تُشنقُ بحبلٍ، بل تُعرض عُلى مرآةٍ يراها الجميع." أدركتْ نرمين أن هذاَ الفيديو لم يكنْ مجردَ دليلٍ، بل شرارةً، ستتغزوُ الفضاءَ الرقميَّ، وستُحدثُ زلزالاً في أرض جميع أكاذيب السرديةِ الرسميةِ.

قررتْ نرمين أن تُطلقَ حملةً متكاملةً. ستبدأُ بهاشتاغٍ يُثيرُ التساؤلاتِ، ثمّ تُتبعُها بالفيديو الذي يُظهرُ زيادَ وهوَ يشتري الحبلَ. اختارتْ لهاشتاغِها عنواناً مباشراً، يُخاطبُ الضميرَ الجمعيَّ ويُثيرُ الغضبَ: "#من_قتل_غفران؟" هذاَ الهاشتاغُ ليسَ مجردَ كلماتٍ، بل أرادته صرخةً، استغاثةً، دعوةً للتحقيقِ وتحدياً مباشراً لكلِّ من حاولَ دفنَ الحقيقةِ.

* * *

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

في تلكَ الليلةِ التي انبلجَ فيها فجرٌ خريفيٌ باردٌ على بغدادَ، أطلقتْ نرمين هاشتاغَها. لم يكنْ مجردَ تغريدةٍ، بل كانَ إعلانَ حربٍ رقميةٍ. "#من_قتل_غفران؟" وصورة لشخص يشتري حبلا، مع مجموعة من المعلومات الشاملة، انتشرَ الموضوع واستخدم الهاشتاغُ بسرعة على منصاتِ التواصلِ الاجتماعيّ. بدأ المئاتُ، ثمّ الآلافُ، في مشاركتهِ، كلٌّ واحدٍ يكتبُ تعليقهُ، يُشاركُ قلقهُ، يُطالبُ بالعدالةِ. راقبت داليا الشاشاتِ بذهولٍ، ورأت كيفَ أنّ صوتَ غفران الذي حاولتْ هيَ إخراجهُ، أصبحَ الآنَ صدىً مدوياً في فضاءٍ لا يعرفُ حدوداً.

لم تمرَّ سوى ساعاتٍ قليلةٍ حتى كانَ الهاشتاغُ قد تصدّرَ قائمةَ الأكثرِ تداولاً في العراقِ. كانتْ التعليقاتُ تتراوحُ بينَ الدهشةِ والغضبِ والسخريةِ المريرةِ. "92% فشلٌ دراسيٌّ؟ أيُّ نوعٍ من الفشلِ هذا؟" كتبَ أحدهم. "الحبلُ الأبيضُ و'الحمامُ العنيدُ'... القصةُ تتكشفُ!" علّقتْ فتاةٌ أخرى. "أينَ زياد الآنَ ليردَّ على هذا؟" تساءلَ آخر.

ثمّ، في لحظةٍ فاصلةٍ، أطلقتْ نرمين الفيديو. كانتْ قد أعدّتهُ بعنايةٍ، مع استخدام بعضِ التقنياتِ البسيطةِ لتوضيح مُجريات الحدث وعملية الشراء لضمانِ انتشارهِ قبلَ أن يُحذفَ. الفيديو، رغمَ ضبابيتهِ، كانَ كافياً ليُلقي بظلالٍ قاتمةٍ على روايةِ الانتحارِ. صورةُ زياد وهوَ يشتري الحبلَ، ضحكتهُ القاسيةُ، التفافُ الحبلِ في الكيسِ الأسودِ. تلكَ هيَ اللحظةَ التي أدركَ فيها الجميعُ أنّ هناكَ شيئاً أعمقَ من مجردِ انتحارٍ، شيئاً يُشيرُ إلى جريمةٍ باردةٍ، وجلادٍ يرتدي قناعَ الأخِ الحامي.

منشورات «ألف باء» AlfYaa

كانَ تأثيرُ الفيديو مُذهلاً. بدأَ الناسُ في ربطِ الخيوطِ، يتذكرونَ حديثَ زياد عن "الفشلِ الدراسيّ"، ورفضَ الشيخِ الصلاةَ، وصورةَ البابِ المخلوعِ. بدأتْ الشكوكُ تتفاقمُ، وبدأَ الرأيُ العامُّ ينقلبُ ببطءٍ، لكنْ بثباتٍ، ضدّ الروايةِ الرسمية. نرمين تُراقبُ المشهدَ بذهولٍ، ترى كيفَ أنّ شرارةً رقميةً واحدةً يُمكنُ أن تُشعلَ عاصفةً من الغضبِ والبحثِ عن الحقيقة.

لكنّ عاصفةَ الحقيقةِ لم تكنْ لتمرَّ دونَ ردِّ فعلٍ عنيفٍ من الأطرافِ المُستفيدةِ من التسترِ على الجريمةِ أو التي ساهمت في التستر. لم تمضِ سوى ساعاتٍ قليلةٍ على انتشارِ الفيديو والهاشتاغ، حتى بدأتْ قناةٌ فضائيةٌ مواليةٌ، تُعرفُ بارتباطها بالـ عمارتلي والقوى النافذةِ، في شنِّ حملةٍ شرسةٍ ضدّ نرمين. ظهرَ مراسلُ القناةِ الموالية، وجههُ مليءٌ بالغضبِ المصطنع، وصوتُهُ يهتزُّ بالاتهاماتِ، ليصفَ نرمين بأنها "عميلةٌ خارجيةٌ"، و"مُحرّضةٌ طائفيةٌ غير عربية"، و"تهدفُ إلى زعزعةِ الأمنِ الاجتماعيّ وتشويهِ سمعةِ أبناء العشائرِ وحماة الدين الغيارى".

"هذهِ الصحفيةُ المأجورةُ، لا تُهمّها الحقيقةُ!" صدحَ صوتُ المراسلِ في شاشاتِ التلفازِ. "إنّما تُحاولُ أن تُشعلَ فتنةً جديدةً في بلدنا، تُشوهُ سمعةَ شبابنا وشاباتنا، وتُلقي باللائمةِ على أبناءِ البلد الشرفاءِ! إنها تُريدُ أن تُبرّئَ المنتحرينَ، وتُلقي باللومِ على مجتمعنا الطاهرِ! هذاَ هوَ التحريضُ الطائفيُّ بعينهِ، هذاَ هوَ التآمرُ على العراقِ وشعبهِ!"

انتشرتْ هذهِ الاتهاماتُ بسرعةٍ مُذهلةٍ، وأعقبها هجومٌ مُنظّمٌ من حساباتٍ وهميةٍ على وسائلِ التواصلِ الاجتماعيّ،

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

تُهاجمُ نرمين وداليا، وتُهدّدهما، وتُعيدُ ترسيخَ روايةِ الانتحارِ. التعليقاتُ تُشيرُ إلى أنَّ الفيديو "مُفبركٌ"، وأنَّ نرمين "تُحاولُ كسبَ الشهرةِ على حسابِ آلامِ الناسِ". الشيخُ عبد المهدي قد استغلَّ الفرصةَ ليُعيدَ تأكيدَ خطابهِ السابق، ويُشيرَ إلى "دعاةِ الفتنةِ" الذينَ "يُضللونَ الناسَ بالأكاذيبِ والفيديوهاتِ المفبركةِ".

تحولَ الأثيرُ الرقميُّ إلى ساحةِ حربٍ حقيقيةٍ. "#من_قتل_غفران؟" في مواجهةِ "#غفرانُ_انتحرت" و"#نحمي_شرفَ_مجتمعنا". لكلِّ طرفٍ جيشُه الرقميُّ، ووسائلُ إعلامهِ، وسرديتهُ التي يُحاولُ فرضَها. أدركتْ نرمين أن المعركةَ لم تكنْ مجردَ كشفِ حقيقةٍ، بل صراعاً وجودياً على الوعيِّ، صراعاً على من يملكُ الحقَّ في كتابةِ التاريخِ، على من يملكُ الحقَّ في روايةِ القصصِ. تلكَ الليلةُ وما تلاها هيَ بدايةَ عاصفةٍ لم يكنْ أحدٌ يتوقعُ مداها، عاصفةٍ ستُعيدُ لغفران صوتها الذي سُرقَ، بغض النظر عن الثمن.

كيفَ يُمكنُ لصورةٍ وفيديو وتفاصيل مكتوبة أن تكسر حصناً من الصمتِ المُرصّعِ بالأكاذيبِ، وأن تُشعلَ حرباً لا تُرى بالعينِ، ولكنها تُحاربُ في أعماقِ الوعيِ؟ هل يكفي أن تُرفعَ الرايةُ الرقميةُ، لكي تُهدمَ جدرانُ الظلمِ، أم أن كلَّ صدىً للحقِّ، سيُقابلُ بألفِ صدىً للباطلِ، في فضاءٍ يتسعُ لكلِّ الوجوهِ المتغيرةِ للحقيقة؟

* * *

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

6

عندما أُغلقَ حسابُ داليا على فيسبوك، لم يكنْ ذلكَ مجردَ حذفٍ افتراضيٍّ، بل كانَ إعلانَ حصارٍ حقيقيٍّ. شعرتْ داليا، حينها، بأنّ العالم الرقميَّ، الذي كانَ يُفترضُ أن يكونَ فضاءً للحريةِ، قد تحوّلَ إلى سجنٍ آخرَ، جدرانُه شفافةٌ لكنّها خانقةٌ. كانتْ الكلماتُ التي تتناول نرمين وتتعرض لها والمُعلنةُ بصوتٍ مُتعالٍ على شاشاتِ القنواتِ الموالية للعمارتلي ، تُدوّي في رأسها كصافراتِ إنذارٍ: "عميلةٌ خارجيةٌ، مُحرّضةٌ طائفيةٌ غير عربية، تُريدُ زعزعةَ الأمنِ". كانَ هذاَ هوَ الثمنُ الباهظُ للجرأةِ في بلدٍ تُشنقُ فيهِ الحقائقُ قبلَ أن تُولدَ.

في شقةِ عائلة داليا بالمنصورِ، كانتْ تعيشُ تحتَ وطأةِ صمتٍ أثقلَ من أيِّ ضجيج. كلُّ نقرةٍ على جهازِ الحاسوبِ، كلُّ تمريرةٍ على شاشةِ الهاتفِ، كانتْ تُنبئُها بأنّها مُراقبةٌ، مُتتبّعةٌ. لكنّ روحَ غفران، التي تتنفسُ في داخلها، لم تكنْ لترضى بالاستسلامِ. كانتْ داليا تُدركُ أن المعركةَ قد تحوّلتْ من مجردِ بحثٍ عن قاتلٍ إلى صراعٍ أعمقَ وأكثرَ تعقيداً؛ صراعٍ على السرديةِ، على من يملكُ الحقَّ في كتابةِ التاريخِ، على من يملكُ الحقَّ في روايةِ قصةِ غفران.

في تلكَ الليلةِ التي أعقبتْ عاصفةَ فيسبوك، وبينما كانتْ داليا تُصارعُ أشباحَ اليأسِ، تلقّتْ رسالةً مجهولةً عبرَ تطبيقِ تليغرام الذي لم تكنْ تستخدمهُ إلا نادراً. كانتْ الرسالةُ مختصرةً، تحملُ دعوةً للانضمامِ إلى مجموعةٍ على

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

تيليغرام. لم يكنْ هناكَ اسمٌ للمرسل، فقط رمزٌ صغيرٌ يُشبهُ شمعةً تضيءُ في الظلامِ. ترددتْ داليا للحظةٍ، هل هذاَ فخٌّ؟ هل هوَ مصيدةٌ أخرى نُصبتْ لها في هذاَ الفضاءِ الرقميّ المليءِ بالأشباح؟ لكنّ فضولَها، وإيمانَها بأنّ غفران لم تُدفنْ، كانا أقوى من خوفها. ضغطتْ على رابطِ الدعوةِ، ليُفتحَ لها عالمٌ جديدٌ.

يُضيءُ اسمُ المجموعةِ سماءِ الشاشةِ: "غفران لا تزالُ هنا". كلماتٌ بسيطةٌ لكنها كانتْ كافيةً لتُعيدَ الروحَ إلى جسدِ داليا المتعب. انضمّتْ إلى المجموعةِ، لتجدَ عشراتِ الأسماءِ المستعارةِ، صوراً رمزيةً مُتخفيةً، وبعضَ الرسائلِ المُحتشمةِ التي تُعبرُ عن تضامنٍ حذرٍ. شعرتْ داليا بأنّها قد عثرتْ على ملاذٍ في أثيرٍ محاصرٍ. هذهِ هيَ شرارةٌ أولى لمقاومةٍ رقميةٍ، ستُبنى على رمادِ الحساباتِ المُعلقةِ، وعلى أنقاضِ الثقةِ المُتهدمةِ في المنصاتِ الكبرى.

في زاويةٍ من هذاَ العالمِ الجديدِ، ظهرَ اسمٌ مستعارٌ: "خالد – مهندسُ الظلالِ" وهوَ العقلَ التقنيَّ المدبّرَ للمجموعةِ، شابٌ في أوائلِ العشرينياتِ، عيناهُ تلمعانِ بذكاءٍ حادٍّ وروحٍ ناهضة لا تعرفُ المستحيلَ. كانَ يعرفُ كيفَ تُبنى الجدرانُ الرقميةُ وكيفَ تُهدمُ، كيفَ تُخفى البصماتُ وكيفَ تُتتبّعُ، كيفَ تُشفّرُ الرسائلُ وكيفَ تُخترقُ العتمةُ. كلماته الأولى في المجموعةِ مُفعمةً بالوضوحِ والحذرِ: "هنا، لا تُوجدُ أسماءٌ حقيقيةٌ، لا تُوجدُ وجوهٌ مكشوفةٌ. هنا، تُوجدُ حقيقةٌ واحدةٌ، وصوتٌ واحدٌ لغفران. نحنُ كلُّنا غفران. نحنُ هنا لأننا نُؤمنُ بأنّ هذهِ المروحةَ لم تُشنقْ عليها روحٌ، بل شُنقَتْ عليها الحقيقة ، ونحنُ نُريدُ أن نكسرهُ."

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

كانَ خالدٌ قد تابعَ قصةَ غفران منذُ البدايةِ، تأثرَ بذكائها وجرأتها، وغضبَ من محاولاتِ طمسِ الحقيقةِ. كانَ يُدركُ أن المعركةَ لنْ تكونَ سهلةً، وأنّ خصومَهم يملكونَ المالَ والسلطةَ والنفوذَ، لكنّهُ كانَ يُؤمنُ بقوةِ الشبابِ الذي لا يُمكنُ إسكاتُه. "عُلّقتْ حساباتُنا على فيسبوك، لكننا لنْ نُغلقَ أفواهنا هنا." قالَ خالدٌ في رسالةٍ صوتيةٍ أرسلها إلى المجموعةِ. "سنعملُ في الظلِّ، لكنّ نورَنا سيصلُ إلى كلِّ مكانٍ. غفرانُ لم تنتحرْ، وغفرانُ لا تزالُ هنا، تُراقبُنا، وتُطالبُنا بالعدالةِ."

تضمُّ المجموعةُ طلاباً، ناشطينَ، أساتذةً، وحتى طبيباً شرعياً متقاعداً، كلهم يُخفون هوياتهم، لكنّهم يجمعهم هدفٌ واحدٌ: كشفُ الحقيقةِ. تُشاهد داليا ُ تدفقَ الرسائلِ في المجموعةِ، تشعرُ بأنّها ليستْ وحدها. هذهِ هيَ روحُ الشبابِ الذي لا ينحني، الذي يُحوّلُ كلَّ قمعٍ إلى دافعٍ للمقاومةِ، وكلَّ صمتٍ إلى صرخةٍ مُدوّيةٍ في أثيرٍ لا يُمكنُ حصارهُ. تحوّلَ الفضاءُ الرقميُّ إلى ملتقىً للأرواحِ المُتمردةِ، إلى عالمٍ آمنٍ تُنسجُ فيهِ خيوطُ الحقيقةِ من جديدٍ، خيطاً خيطاً، في مواجهةِ حبلِ الكذبِ الذي حاولَ أن يُشنقَ روحَ غفران.

* * *

في عالمٍ يُدفنُ فيهِ الموتى بأسرارهم، تُصبحُ إعادةُ بناءِ حياتهم الأخيرةِ كمن يُحاولُ إعادةَ بناءِ هيكلٍ عظميٍّ من رمادٍ متناثرٍ. داخلَ مجموعةِ "غفران لا تزالُ هنا"، وهذاَ هوَ التحديَ الذي واجهَهُ الأعضاءُ. لم يعدْ الأمرُ مجردَ اتهامٍ، بل أصبحَ بحثاً منهجياً، مُعقداً، يتطلبُ صبراً ودقةً، كمن يُفكّكُ قنبلةً موقوتةً تُخبّئُ داخلها تاريخَ مدينةٍ كاملةٍ. عيونُ خالدٍ،

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

الـذي يُعـرفُ بــ"مهنـدسِ الظـلالِ" في المجموعـةِ، تلمعـانِ بتركيزٍ شديدٍ وهوَ يُحدّقُ في شاشاتِ حاسوبهِ المتعددةِ. يُشبهُ قائدَ أوركسترا، كلُّ شاشةٍ تُعزفُ لحناً مختلفاً من البياناتِ، لكنّها كلّها تُؤدي إلى قضية واحدةٍ: حقيقةُ غفران.

"علينا أن نُعيدَ بناءَ الأسبوعِ الأخيرِ في حيـاةِ غفـران." قالَ خالدٌ بصوتٍ هادئٍ عبرَ رسالةٍ صوتيةٍ في المجموعةِ. "كلُّ رسالةٍ، كلُّ بريدٍ إلكترونـيٍّ، كلُّ بحثٍ عن كلمةٍ علـى الإنترنتِ، كلُّ مكالمةٍ، كلُّ شراءٍ، كلُّ لقاءٍ. كلُّ بصمةٍ رقميةٍ أو أثرٍ ماديٍّ هوَ قطعةٌ من هذاَ اللغزِ. غفرانُ لم ترحلْ دونَ أن تـتركَ وراءَهـا خيوطـاً. واجبُنـا أن نلتقطَهـا." هـذهِ هيَ المهمةَ الأساسيةَ التي بدأتْ بها المجموعـةُ. داليـا، بقـدرتها على الملاحظةِ، قدّمتْ المعلوماتِ التي جمعتها من الدكتورةِ إيمانَ وذكرياتها عن غفران. خالدٌ، بمهاراتهِ التقنيةِ، يُحاولُ استخراجَ أيِّ بياناتٍ مُتبقيـةٍ مـن الأجهـزةِ الـتي يُحتمـلُ أن غفران قد استخدمتها، أو من حساباتها السحابيةِ، إنْ وُجدتْ.

"غفرانُ ذكيةً جـداً،" قـالتْ داليـا في رسـالةٍ للمجموعـةِ. "تُدركُ حجمَ المخاطرِ التي تُحيطُ بها، خاصةً بعدَ أن بدأتْ بحثها الخاص عن 'العنفِ في تقاريرِ الانتحارِ'. أنا متأكـدةٌ أنها تركتْ لنا أدلةً، أو خيوطاً تُقودُنا." كـلامُ داليـا يُعـطي خالداً ورفاقهَ دفعةً معنويةً قويةً. بدأوا العملَ كخليةِ نحلٍ، كلُّ عضوٍ يُساهمُ بمعلوماته، بحدسهِ، أو بقدرتهِ على البحثِ.

وبعدَ أيامٍ من البحثِ المُضني في أثيرِ الإنـترنتِ، ومـن خلالِ شبكاتِ المعارفِ والزملاءِ الأكاديميينَ، بدأَ خالـدٌ في جمعِ خيوطٍ حاسمةٍ. اكتشفَ خالدٌ، من خلالِ استعادةِ سجلاتِ البريدِ الإلكترونـيِّ (التي كانتْ قد أرسلتْها إلى بريدٍ احتياطـيٍّ،

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

بتوجيهاتٍ من الدكتورةِ إيمانَ)، مراسلاتٍ مكثفةً بينَها وبينَ باحثةٍ شابةٍ من السليمانيةِ، اسمها "شيرين أحمد"، التي تُعدُّ رسالةَ ماجستيرٍ حولَ "سردياتِ الشرفِ في المناطقِ الكرديةِ وعلاقتها بجرائمِ القتلِ المُقنّعةِ". ركّزَتْ المراسلاتُ على حالاتٍ مُحددةٍ من "الانتحار" بينَ الشاباتِ في الشمالِ والجنوبِ، تحملُ جميعُها قواسمَ مشتركةً: تفوّقٌ دراسيٌّ، رفضٌ لزيجاتٍ تقليديةٍ، واختفاءُ الأدلةِ الجنائيةِ بعدَ الوفاةِ. خطّطَتْ غفرانُ للقاءٍ مع شيرينَ لتبادلِ المعلوماتِ والخبراتِ، ولتوسيعِ شبكةِ بحثها. "هذاَ يُثبتُ أنها لم تكنْ وحدها، وأنّ بحثها كانَ خطيراً جداً،" كتبَ خالدٌ في المجموعةِ. "إنها لم تكنْ تبحثُ عن قضيةٍ فرديةٍ، بل من أجل أن تكشفُ عن ظاهرةٍ نظاميةٍ."

ثمّ جاءَ اكتشافٌ آخرَ مُفاجئ. من خلالِ تحليلِ سجلاتِ مشترياتِ غفران عبرَ الإنترنتِ (التي كانتْ تُفضلُ الشراءَ من مكتباتٍ إلكترونيةٍ تُتيحُ التوصيلَ إلى المنزلِ) وكان ذلك عن طريق كوميوتر داليا، وجدَ خالدٌ أنها اشترتْ كتاباً بعنوانِ "جسدُ المرأةِ في الفقهِ السياسيّ: مقارباتٌ نقديةٌ لحالةِ العراقِ المعاصرِ". هذاَ الكتابُ، الذي يُعدُّ مرجعاً جريئاً في مجالِ النسويةِ الدينيةِ ونقدِ التفسيراتِ المتشددةِ لجسدِ المرأةِ ومكانتها في المجتمعِ الإسلاميّ المعاصرِ، يُشيرُ بوضوحٍ إلى عمقِ بحثِ غفران الفكريّ والأيديولوجيّ. "غفرانُ لم تكنْ فاشلةً دراسياً، يا سادة. غفرانُ كانتْ روحاً عاصفةً ضد تقبّلِ الظلمِ الاجتماعيّ، و روحاً عاصفةً ضد الصمتِ على انتهاكِ جسدِ المرأةِ وروحها باسمِ الدينِ أو العرفِ." علّقتْ داليا في المجموعةِ، وشعرتْ بدموعٍ تتجمّعُ في عينيها، حزناً وفخراً في آنٍ واحدٍ على صديقتها التي حاربَتْ بفكْرها

منشورات «ألف باء AlfYaa»

وقلمها. هذاَ الاكتشافُ يُعمّقُ فهمَهم لدوافعِ غفران، ويُظهرُ أن موتها لم يكنْ عشوائياً، بل كانَ نتيجةً مباشرةً لـ"جرأتها الفكريةِ".

وأخيراً، اكتشفَ خالدٌ سجلّاً لمكالمةٍ مطوّلةٍ أجرتها غفرانُ قبلَ أيامٍ من وفاتها، مع طالبةٍ جامعيةٍ من بغدادَ، تعرّضتْ لـ"تهديدٍ شرفيّ" من أقاربها بسببِ علاقةٍ عاطفيةٍ. قَدّمتْ غفرانُ لها النصحَ والدعمَ، وشجّعتها على عدمِ الاستسلامِ، وأشارت عليها ببعضِ الجهاتِ القانونيةِ التي تُقدمُ المساعدةَ للنساءِ المُهدداتِ. هذهِ المكالمةُ بمثابةِ نقطةِ تحولٍ أخرى. غفرانُ ليستْ مجردَ باحثةٍ، بل كانتْ ناشطةً، مُدافعةً عن حقوقِ النساء، تمدُّ يدَ العونِ لضحايا العنفِ القاتل. تُخاطرُ بحياتها من أجلِ إنقاذِ حياةِ أخرياتٍ. " غفرانُ تُشبهُ قنديلاً يُضيءُ الدربَ للآخرين، حتى لو أحرقَ نفسه،" كتبَ أحدُ أعضاءِ المجموعةِ، واسمُه المستعارُ "ضوءٌ في الظلامِ".

كانَ إعادةُ بناءِ الأسبوعِ الأخيرِ في حياةِ غفران يُشبهُ فكَّ شفرةٍ قديمةٍ. كلُّ قطعةٍ من المعلوماتِ، كلُّ خيطٍ رقميٍّ، كانَ يُضيءُ جزءاً من الصورةِ الكبرى. كانتْ غفرانُ تبحث عن قضايا الفساد وقد بدأت في مسك بعض الخيوط المهمة. كانتْ هذهِ الاكتشافاتُ تُقوّي عزمَ المجموعةِ، وتُؤكدُ لهم أنّهم على الطريقِ الصحيحِ. وأنّ حقيقةَ غفران، التي حاولَ زيادُ ورفاقهُ دفنَها، لا تزالُ حيةً، تُرسلُ خيوطَها في أثيرٍ رقميٍّ لا يُمكنُ حصارهُ، تنتظرُ من يجرؤُ على جمعها ونسجها في صورةٍ كاملةٍ.

* * *

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

بعدَ أن حيكتْ خيوطُ الأسبوعِ الأخيرِ لغفران، وبعدَ أن أثبتتْ رسائلُها ومشترياتها واتصالاتُها أنّها لم تكنْ فاشلةً بل بطلةً تُحاربُ بفكْرها، أدركتْ داليا وخالدٌ أنهم بحاجةٍ إلى دليلٍ آخرَ، دليلٍ لا يُمكنُ دحضهُ بالكلماتِ أو السرديات الجاهزةِ. دليلٌ ينبعُ من جسدِ غفران نفسه، من الصمتِ الأبديّ الذي لفّها. هذاَ الدليلُ هوَ التحليلَ العلميَّ لعلاماتِ الخنقِ، الذي يُمكنهُ أن يُسقطَ روايةَ "الانتحارِ" من أساسها.

في إحدى ليالي بغدادَ المُتربةِ، التقَتْ داليا وخالدٌ، برفقةِ عضوٍ آخرَ من المجموعةِ، بـ"الدكتورِ نبيل"، طبيبٍ شرعيٍّ متقاعدٍ، كانَ قد أمضى عقوداً في تشريحِ الجثثِ وكشفِ أسرارِ الموتى. بدا الدكتورُ نبيلُ رجلاً مسناً، وجههُ يُحملُ تجاعيدَ الزمنِ وهمومَ مهنةٍ صعبةٍ، لكنّ عينيهِ لا تزالانِ تلمعانِ بذكاءٍ وحسٍّ عالٍ بالعدالةِ. سمعَ عن قصةِ غفران عبرَ العالمِ الرقميّ، وتحرّكَ فيهِ ضميرُه المهنيُّ والإنسانيُّ.

"رأيتُ صورَ الجثةِ التي التقطها الشرطيُّ في مكانِ الحادثِ،" قالَ الدكتورُ نبيلُ بصوتٍ رصينٍ، وهوَ يُشيرُ إلى صورٍ مُشوشةٍ أرسلها عضوٌ في المجموعةِ، تُظهرُ غفران ملقاةً على الأرضِ وبعضَ آثارِ الحبلِ على رقبتها. "والتقريرَ الأوليَّ الذي وقّعهُ الطبيبُ الشرعيُّ الموظفُ، هوَ مهزلةٌ مهنيةٌ. لم يرَ الجثةَ حتى، وقبلَ بروايةِ الأخِ دونَ تحقيقٍ."

بدأَ الدكتورُ نبيلُ في شرحِ التفاصيلِ الفنيةِ بعمقٍ، تحمل كلماتهِ حقيقةً لا يمكنُ دحضها. "علاماتُ الخنقِ شنقاً تُتركُ دائماً آثاراً مُحددةً. على سبيلِ المثالِ، العقدةُ التي وُصفتْ في

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

التقريرِ الأوليّ بأنها 'عقدةٌ بسيطةٌ' لا تتوافقُ معَ الخنقِ الانتحاريّ النموذجيّ. غالباً ما يستخدمُ المنتحرُ عقدةً مُحكمةً، تُعرفُ بـ'عقدةِ الجلادِ' أو ما يُشبهها، تضغطُ بقوةٍ على الشريانِ السباتيّ لتُحدثَ فقداناً للوعيّ بسرعةٍ. العقدةُ 'البسيطةُ' التي وُصفتْ هنا تُشيرُ إلى احتمالٍ كبيرٍ بأنها لم تكنْ مُحكمةً بالقدرِ الكافي لإحداثِ وفاةٍ سريعةٍ وفعّالةٍ بالانتحارِ."

ثمّ أشارَ الدكتورُ نبيلُ إلى نقطةٍ أكثرَ أهميةً. "الصورُ تُظهرُ آثارَ احتكاكٍ على الرقبةِ ليستْ متناسبةً معَ قوةِ التعليقِ الذاتيّ. لو كانتْ غفرانُ قد شنقتْ نفسها، لكانَ هناكَ نمطٌ معيّنٌ من الشدّ والضغطِ، يختلفُ عن آثارِ الخنقِ اليدويّ أو من شخصٍ آخر. الأهمُّ من ذلكَ، هوَ موضعُ الحبلِ. في الانتحارِ شنقاً، غالباً ما يُعلّقُ الجسدُ بطريقةٍ تُحدثُ كسراً في العظمِ اللاميّ أو تُسببُ ضغطاً شديداً على القصبةِ الهوائيةِ وشرايينِ الرقبةِ، ما يُفضي إلى موتٍ سريع. لكنّ التقريرَ لم يُشرْ إلى أيّ كسرٍ، والآثارُ تبدو أكثرَ اتساقاً معَ الخنقِ غيرِ الكاملِ أو التعليقِ بعدَ الوفاةِ."

تستمعُ داليا بذهولٍ، تُسجلُ كلَّ كلمةٍ في دفترها، تشعرُ بأنّ روحَ غفران تُصرخُ من خلالِ كلماتِ الدكتورِ نبيل. "ولكنّ الشرطيَّ صوّرَ الجثةَ وهيَ ملقاةٌ على الأرضِ،" قالتْ داليا. "وزيادُ أنزلَها قبلَ وصولِ الشرطةِ، وقبلَ أن تُعاينَ الجثةَ وهيَ معلّقةٌ."

"وهذاَ هوَ ما يُثيرُ الشكوكَ الكبرى، يا داليا!" أجابَ الدكتورُ نبيلُ بحدّةٍ. "إزالةُ الجثةِ من مسرحِ الجريمةِ قبلَ

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

وصولِ الجهاتِ المختصةِ هيَ أكبرُ تلاعبٍ بالأدلةِ. علاماتُ الحبلِ على المروحةِ، المسافةُ بينَ الجسدِ والأرضِ، غيابُ الكرسيِّ أو وسيلةِ الصعودِ... كلُّ هذهِ التفاصيلِ كانتْ ستُعطينا صورةً أوضحَ بكثيرٍ. ولكنْ حتى من خلالِ الصورِ والتقريرِ المتواضعِ، يُمكنني أن أقولَ لكمَ بثقةٍ مهنيةٍ، إنّ علاماتِ الخنقِ على جثةِ غفران لا تتفقُ، وبشكلٍ حاسمٍ، معَ سيناريو الانتحارِ النموذجيِّ. هناكَ مؤشراتٌ قويةٌ إلى احتمالِ تدخّلٍ خارجيٍّ، إلى جريمةِ قتلٍ."

كلماتُ الدكتورِ نبيلُ سقطتْ على داليا وخالدٍ كصاعقةٍ. كانَ هذاَ هوَ الدليلَ الذي لا يُمكنُ دحضهُ، شهادةَ العظمِ التي لا تكذبُ. غفرانُ قُتلتْ، وكلُّ ما روّجهُ زيادُ ورفاقهَ كانَ محضَ كذبٍ وتضليلٍ. "إذن... غفرانُ مُحقّةً." همستْ داليا، وعيناها تتلألآنِ بالدموعِ. "لم تختطفْ من سردها، بل من حياتها، لكنّ سردها سيبقى حياً."

ارتفعتْ معنوياتُ المجموعةِ بشكلٍ كبيرٍ بعدَ تحليلِ الدكتورِ نبيل. أصبحَ لديهم الآنَ سلاحٌ أقوى من أيّ هاشتاغٍ أو منشورٍ؛ سلاحُ العلمِ والحقيقةِ التي تنطقُ من جسدِ الضحيةِ نفسه. "علينا أن نُعلنَ ذلكَ، يا خالدُ!" قالتْ داليا بحماسٍ. "علينا أن نُفضحَ هذهِ الجريمةَ البشعةَ، وهذاَ التسترَ، باسمِ العلمِ والعدالةِ!"

* * *

لم تعدْ داليا تلكَ الفتاةَ التي تُراقبُ الأحداثَ من خلفِ شاشةِ حاسوبٍ. تحوّلتْ، بفعلِ خيوطِ الحقيقةِ التي نسجتها

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

المجموعةُ، وبفعلِ الشهادةِ المهنية التي قدّمها الدكتورُ نبيل، إلى صوتٍ، إلى منبرٍ، إلى روحِ مواجهةٍ لا تُقهرُ. كلماتُ غفران الأخيرةِ في مدونتها الخاصةِ تُدوّي في رأسها: "لا أخشى الموتَ، بل أخشى أن يُسرقَ صوتي، أن يُسرقَ سردي، أن تُسرقَ حقيقتي." والآنَ، جاءَ وقتُ استعادةِ هذاَ السردِ المسروقِ.

بعدَ سلسلةِ نقاشاتٍ مكثفةٍ داخلَ مجموعةِ "غفران لا تزالُ هنا"، قررتْ داليا أن تُطلقَ مدونةً جديدةً، هذهِ المرةَ على منصةٍ تحافظ على السرية، ولا يمكن إسكاتها، تُديرُها شبكةٌ من الناشطينَ التقنيينَ، بقيادةِ خالدٍ، تُعرفُ بـ"يوميات قضية غفران". هذهِ المدونةُ الإضافية هيَ المساحةَ التي ستُصبحُ فيها غفرانُ صوتاً للعدالةِ، ومنبراً للمواجهةِ.

بدأتْ داليا في كتابةِ منشوراتها، لم تكنْ مجردَ تقاريرَ تحقيقيةٍ، بل كانتْ نصوصاً أدبيةً، فلسفيةً، تُلامسُ جوهرَ الوجودِ الإنسانيّ في مجتمعٍ يُحاولُ قمعَ الروحِ. كانتْ تُركّزُ على "رغبةِ النساءِ في المواجهةِ"، على "قوةِ الصوتِ المُستعادِ"، وعلى "جمالِ الروحِ المُتمردةِ". كانتْ كلماتُها تُعبّرُ عن غضبٍ مقدسٍ، لكنها أيضاً تُشِعُّ بأملٍ لا ينطفئ.

في منشورٍ بعنوانِ "لا تُشنقُ روحٌ على حبلٍ من الأكاذيب"، كتبتْ داليا: "قيلَ لنا إنّ حبلاً أبيضَ، لا يحملُ إلا ثقلَ جسدٍ نحيلٍ، قد أنهى قصةَ غفران. قيلَ لنا إنّ الفشلَ الدراسيَّ، أو ربما 'ضغوطاً نفسيةً'، قد دفعَها إلى حافةِ الهاويةِ. لكننا اليومَ نُعلنُ، وبصوتٍ لا يلينُ، أنّ غفران تُحملُ في روحها جيشاً من الأفكارِ، جيشاً من الأحلامِ التي لا

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

تُقهرُ. تُحاربُ بقلبٍ من ذهبٍ، وبعقلٍ من نورٍ، شبكةً من الظلامِ حاولتْ أن تُطفئَ شمعتها. إنّ الحبلَ الذي حاولوا شنقَها بهِ تحول لحبلٍ من الأكاذيب، لأنّ روحَها أضخمَ من أن تُحاصرَ، وأفكارَها أخلدَ من أن تُدفنَ. إننا هنا اليومَ، نساءً ورجالاً، طلاباً وأساتذةً، لنُعلنَ أنّ الصمتَ قد ولى، وأنّ عصرَ المواجهةِ قد بدأَ. لا خوفَ بعدَ اليومِ، ولا تسترَ بعدَ اليومِ. غفرانُ لم تنتحرْ، وغفرانُ تُطالبُ بالعدالةِ، وليسَ لروحٍ أن تُشنقَ مرتين."

في منشورٍ آخرَ بعنوانِ "عندما يصبحُ الجسدُ وثيقةً جنائيةً"، حلّلتْ داليا باقتضابٍ وببلاغةٍ كلماتِ الدكتورِ نبيل، مُشيرةً إلى أنّ علاماتِ الخنقِ على جثةِ غفران لا تتفقُ معَ سيناريو الانتحارِ، وأنّ إزالةَ الجثةِ من مسرحِ الجريمةِ كانَ تلاعباً متعمداً. "إنّ جسدَ المرأةِ ليسَ ملكاً لعائلتها لتُدفنَهُ كيفما تشاءُ، وليسَ ملكاً لمجتمعٍ ليُقرّرَ مصيرَهُ. بل هو وثيقةٌ جنائيةٌ، إنّهُ دليلٌ، إنّهُ شاهدٌ يُخبرُ عن حقيقةٍ لا تُطاق. حانَ الوقتُ لكي نستمعَ إلى ما تُخبرنا بهِ أجسادُنا، إلى ما تُخبرنا بهِ عظامُ من سُرقَ صوتهنّ. إنّ الجسدَ يُمكنُ أن يُدفنَ، لكنّ حقيقتَهُ لا تُموتُ."

منشوراتُ داليا تلقى صدىً في الفضاءِ الرقميّ، وضمن المجموعات الخاصة، وتُشاركُها المجموعةُ عبرَ قنواتٍ بديلةٍ، وتُرسلها إلى صحفيينَ وناشطينَ داخل وخارجَ العراق. بدأتْ تلكَ الكلماتُ تُثيرُ صدىً جديداً، صدىً مختلفاً عن الهاشتاغِ الأولِ. لم يكنْ مجردَ فضولٍ، بل كانَ إحساساً عميقاً بالظلمِ، ووعياً متزايداً بأنّ قصةَ غفران ليستْ مجردَ

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

حادثةٍ فرديةٍ، بل هيَ مرآةٌ تُعكسُ فيها أوجاعُ مجتمعٍ كاملٍ. هذهِ هيَ رغبةُ النساءِ في "المواجهةِ" التي بدأتْ داليا في التعبيرِ عنها، رغبةٌ تُحركُها روحُ غفران التي لم تمتْ، روحٌ تُطالبُ بأن تُعيدَ لغةَ العدالةِ إلى قاموسِها المسروقِ.

يتزايدُ الصدى، وتتزايدُ معه التهديداتُ، لكنّ داليا لم تعدْ تخافُ. تحوّلتْ من فتاةٍ تبحثُ عن الحقيقةِ إلى امرأةٍ تُعلنُ المواجهةَ، إلى صوتٍ لجيلٍ كاملٍ، جيلٍ يرفضُ الصمتَ، ويُؤمنُ بأنّ العالم الرقميَّ هوَ ساحةُ معركةٍ لا تُقهرُ فيها الروحُ. لا تزالُ غفرانُ هنا، تتنفسُ في كلِّ كلمةٍ كتبتها داليا، وتُحلقُ في كلِّ سطرٍ نُشرَ، تُعلنُ عن ميلادِ وعيٍ جديدٍ، وعيٍ يُمكنهُ أن يُغيّرَ بعضَ الأمورِ إلى الأبدِ، مهما بلغتْ قوةُ حبالِ الكذبِ التي تُحاولُ أن تُشنقهُ.

هل تستطيعُ الكلماتُ أن تُعيدَ نبضَ جسدٍ ماتَ، وأن تُحيي روحَ حقيقةٍ دُفنتْ؟ أم أنّ كلَّ صرخةٍ للمواجهةِ، وكلَّ حرفٍ من نورٍ، هوَ مجردُ وميضٍ عابرٍ في ظلامٍ أعمقَ، يتربصُ بمن يجرؤُ على كسرِ قوانينِ صمتِهِ، ويُعيدُ رسمَ خطوطِ مصيرٍ لم يُكتبْ بعد؟

* * *

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

7

أهي حمايةٌ حين تُدفنُ الروحُ، أم لعنةٌ تُعلّقُ على سقفِ الزمن؟ بينَ أنقاضِ الشرفِ المُتصوَّرِ ورمادِ الأمانِ المزعوم، يُقيمُ القاتلُ مذبحاً لضميرِهِ. هل تكفي يدٌ واحدةٌ لتعقدَ حبلاً، بينما ألفُ يدٍ خفيةٍ كانتْ تُشدُّ الخناقَ قبلَها؟ في بغدادَ، حيثُ الوجوهُ تتخفّى خلفَ الأقنعةِ العتيقة، كانتْ لكلِّ جريمةٍ ألفُ جلّادٍ، ولكلِّ حبلٍ ألفُ خيطٍ يمتدُّ في عتمةِ المدينةِ وصدى الذاكرة.

* * *

لم يكنْ زيادُ قد أطلقَ الرصاصةَ الأولى في حياتهِ، إلا حينَ كانَ في الرابعة عشرة من عمرهِ، حينَ تعثّرتْ أختهُ الطفلة الصغيرةُ، غفرانُ، في زقاقٍ موحلٍ بقلبِ حيِّ الفضلِ، وسقطتْ على الأرضِ مُلَطَّخةً بالطينِ، فضحكتْ مجموعةٌ من أولادِ الجيرانِ عليها. لم يكنْ الأمرُ مُهماً في حدِّ ذاتهِ، لكنّ زياداً رأى في تلكَ الضحكاتِ شرارةَ إهانةٍ، شرارةً تُشعلُ فيهِ حساً مُبالَغاً فيهِ بـ"حمايةِ الشرفِ" و"غسلِ العارِ"، حتى لو كانَ عاراً وهمياً كبقعةِ طينٍ. لم يكنْ يعرفُ حينها أنّ حياتهُ ستكونُ رحلةً طويلةً في متاهاتِ هذاَ المفهومِ الملتوي، وأنّهُ سيُصبحُ هوَ بنفسهِ الضحيةَ والجلادَ في آنٍ واحدٍ.

نشأَ زيادُ في كنفِ أبٍ ضعيفِ الشخصيةِ، مُنغمسٍ في صمتٍ أبديٍّ، تاركاً كلَّ ثقلِ العائلةِ على عاتقِ زياد كونهُ

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

الذكرَ الأكبرَ. والدتهُ، رغمَ عملها في مجال التعليم لفترة طويلة من الزمن، امرأةٌ مُنكسرة الروحِ، اعتادتْ على الانصياعِ لكلِّ قرارٍ، حتى لو كانَ قراراً خاطئاً. في هذاَ المناخِ الذي تُسيطرُ عليهِ الرجولةُ الزائفةُ والتقاليدُ المتشددةُ، تعلّمَ زيادُ أن الرجلَ هوَ الدرعُ، هوَ السيفُ، هوَ الحارسُ الوحيدُ لـ"شرفِ العائلةِ" الذي كانَ يُنظرُ إليهِ كجوهرةٍ هشّةٍ تُهددُها أيُّ نظرةٍ أو كلمةٍ أو حتى فكرةٍ. تُشكلُ غفرانُ، بذكائها المُتوقّدِ وروحها المُتحررةِ، في ذهنهِ المُتحجّر، تهديداً مستمراً لهذاَ الشرفِ. كانتْ تتكلمُ عن الحريةِ، عن حقوقِ المرأةِ، عن كسرِ القيودِ، وكلُّ ذلكَ كانَ يتناقضُ معَ القالبِ الذي حُصرَ فيهِ زيادُ.

التحقَ زيادُ بصفوفِ أجهزة ميليشيا العمارتلي في سنواتِ ما بعدَ الحربِ، بعدَ أن يئسَ من الحصولِ على وظيفةٍ حكوميةٍ مُحترمةٍ. لم يكنْ اختياراً، بل كانَ خياراً اضطرارياً، بوابةً إلى السلطةِ والنفوذِ اللذينِ لم يستطعْ الحصولَ عليهما بالوسائلِ التقليديةِ. يمتد نفوذ وشبكات العمارتلي المُتشابكةً مع أجهزة الدولة من القوةِ والفسادِ، تمتدُّ أذرعها إلى كلِّ مفاصلِ الدولةِ. بدأتْ الحياةُ تمنحُ زياداً ما لم يمنحْهُ إياهَا المجتمعُ التقليديُّ: الإحساسَ بالقوةِ، وبالأهميةِ. صعدَ زيادُ بسرعةٍ في صفوفِ أحد أجهزة العمارتلي، أصبحَ الذراعَ اليمنى للعمارتلي في بعضِ العملياتِ السريةِ، خاصةً تلكَ المتعلقةِ بشبكةِ تزويرِ الشهاداتِ والوثائقِ الرسميةِ المتعلقة بالعقارات التي كانتْ تُدرُّ على العمارتلي أموالاً طائلةً. أصبحَ متورطاً حتى الأذنينِ، مُقيّداً بخيوطٍ لا تُرى، لكنها أقوى من أيِّ حبلٍ.

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

يُحيطُ العمارتلي، بشخصيتهِ الكاريزميةِ المُخيفةِ، زياداً بهالةٍ من الخوفِ والولاءِ. يعرفُ كلَّ نقاطِ ضعفِ زيادٍ، كلَّ أطماعهِ، وكلَّ مخاوفهِ. وعندما رفضتْ غفرانُ الزواجَ من العمارتلي، شَعَرَ أن ذلك الرفض هو الضربةَ القاضيةَ. لم يكنْ رفضَ غفران مجردَ رفضٍ شخصيٍّ، بل كانَ إهانةً مباشرةً للعمارتلي، وكسراً صريحاً لـ"كلمةِ زيادٍ" الذي كانَ قد ضمنَ لهُ قبولَ أختهِ. بدأَ العمارتلي يُمارسُ ضغوطاً خفيةً على زيادٍ، تلميحاتٌ باردةٌ، نظراتٌ طويلةٌ، كلماتٌ تُشيرُ إلى أنّ "من لا يُحسنُ إدارةَ عائلتهِ لا يُمكنُهُ إدارةُ عملياتنا، أو بالأحرى لا يمكنه إدارة أي شيء". تلكَ الكلماتُ كتهديدٍ مبطنٍ يُشيرُ إلى أنّ مكانةَ زيادٍ، وحتى حياتهُ، مُهدّدةٌ إذا لم "يُصلحْ" هذاَ الوضعَ. هذاَ هوَ الحبلَ الأولَ الذي بدأَ يلتفُّ حولَ رقبةِ زيادٍ.

ثمّ جاءَ التهديدُ الأكبرُ، التهديدُ الذي كانَ زيادُ يُحاولُ أن يُدفنَهُ. بعد أن تجاوز إلحاحه عليها بالزواج من العمارتلي وصل إلى مرحلة التهديد بأنها ستتزوج منه بالقوة. "أمتلك كل الوثائق لعمليات تزوير وثائق الإملاك، ومعلومات عن تورط مسؤولينَ كبارٌ في هذه العملية." قالت له وهي تنظر في عينيه "إذا استمر هذا الإلحاح، سوف لن أتوقف عن نشر كل ذلك."

شكّلَ ما أعلنته غفران قنبلةً موقوتةً يمكن أن تُهددُ إمبراطوريةِ العمارتلي، وتُكشفُ تورطَ زياد المباشرِ. "إذا كُشفتْ هذهِ الشبكةُ، فسأُصبحُ لا شيءَ. سأكونُ مجردَ ورقةٍ مُحترقةٍ في أيدي العمارتلي." قال لها ذلك. كانتْ تلكَ هيَ

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

الحقيقةَ المُرّةَ التي كانتْ تُطارِدُ زياداً في كوابيسهِ. كانَ يرى في غفران ليسَ مجردَ أختهِ المتمردةِ، بل يراها عدواً مُتربصاً، قنبلةً بشريةً على وشكِ الانفجارِ.

أسرَّ له العمارتلي أنه علَلِمَ من جهاز أمني، أن أخته غفران تُعِدُ بحثاً جريئاً عن "العنفِ ضد النساء في العراق" وأنها تُسمي ما يحصل باعتبارها جرائم، وأنّ هذاَ البحثَ يتطاول على المجتمع وعلى الدين وعلى الأعراف الاجتماعية والعشائرية.

أدركَ زياد أن الحبلَ قد التَفّ حولَ رقبتهِ، وأنّ حبلَ العمارتلي قد التَفّ أيضاً. وكانَ الحلُّ الوحيدُ، في ذهنهِ المُشوشِ والمُحاصرِ، هوَ قطعَ هذاَ الحبلِ قبلَ أن يقطعهُ.

* * *

كان مساء الأربعاء يلقيُ بظلاله الثقيلةِ على حيّ الفضلِ، سكونٌ مُرعبٌ لم يُقطعهُ سوى أصواتِ السياراتِ العابرةِ التي تُذكّرُ بوجودِ سلطةٍ لا تُرى. عادَ زيادُ إلى البيتِ مُتأخراً، محمّلاً بضغوطِ العمارتلي الجديدةِ، وتهديداتهِ المُبطّنةِ، ومعلومات عن بحثِ غفران. كانَ الغضبُ يتأجّجُ في داخلهِ كالنارِ في الهشيمِ، مُضافاً إلى الخوفِ والرعبِ من المستقبلِ الذي كانَ يُهددُهُ بالانهيارِ. "يجبُ أن تتوقفَ. يجبُ أن تُسكتَ. يجب أن توافق على الزواج من العمارتلي. يجب أن لا تدمر مستقبل عائلتها" كانتْ تلكَ هيَ الكلماتُ التي تُدوّي في رأسهِ كصدىً مُريعٍ.

صعدَ زيادُ السلالمَ إلى الطابق الثاني ببطءٍ، كلُّ درجةٍ كانتْ تُحدثُ صوتاً خافتاً في صمتِ الليلِ. كانَ يعلمُ أن غفران

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

تدرس في غرفتها. كانتْ أضواءُ غرفتها في الطابقِ العلويّ تتسللُ من تحتِ البابِ، كأنها ضوءٌ يُشيرُ إلى معبدٍ سريٍّ تُمارسُ فيهِ طقوسُ التمردِ. وقفَ أمامَ البابِ الخشبيّ القديمِ، الذي كانَ يمثلُ حدوداً مقدسةً لغفران. لم يطرقْ. لم يسألْ. دفعَ البابَ بقوةٍ متهورةٍ، قوةٍ مُتولّدةٍ من مزيجٍ من الخوفِ والغضبِ واليأس.

لم يكنِ البابُ مُغلقاً بإحكامٍ، لكنّ الدفعةَ كانتْ عنيفةً لدرجةِ أن إطارَ البابِ الأيمنِ انخلعَ عمودياً بصوتٍ مُكتومٍ، كصوتِ عظمٍ ينكسرُ في الظلامِ. تسلّلَ زيادُ إلى الغرفةِ، الضوءُ يُضيءُ وجهَ غفران ويترك ظله على طاولتها بينَ أوراقها وكتبها، تُحدّقُ في شاشةِ حاسوبها. ترتدي ملابسَ بسيطةً، وشعرُها الأسودُ منسدلٌ حولَ وجهها. رفعتْ رأسها ببطءٍ، عيناها، اللتانِ تحملانِ بريقاً من التحدي والذكاءِ، التقيتا بعينيْ زياد اللتينِ كانتا تُشِعّانِ بغضبٍ أعمى.

"ماذا تفعلُ هنا يا زياد؟" سألتهُ غفرانُ بهدوءٍ، لكنّ صوتها كانَ يحملُ نبرةً من الاشمئزازِ. "ألا تعرفُ معنى الخصوصيةِ؟"

"الخصوصيةُ؟" ردَّ زيادُ بصوتٍ أجشَّ، يرتجفُ بالغضبِ. "أيُّ خصوصيةٍ تتحدثينَ عنها؟ هل نسيتِ أنكِ ابنةُ هذهِ العائلةِ؟ هل نسيتِ شرفنا؟ هل نسيتِ من هوَ العمارتلي؟" كانَ يتحدثُ بسرعةٍ، كلماتهُ تتداخلُ، تُعبرُ عن فوضى عارمةٍ في داخلهِ.

"أي شرفٍ يا زياد!" أجابتْ غفرانُ بحدّةٍ، ونهضتْ من السرير حيث كانت تدرس وكتبها وأوراقها وكومبيوترها حولها، لتقفَ في مواجهتهِ. "أوهامٌ تُدفنونَ بها كلَّ قيمةٍ

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

حقيقيةٍ! العمارتلي هوَ مجردُ فاسدٍ، وأنتَ جزءٌ من فسادِهِ! وأنا لنْ أكونَ جزءاً منهُ أبداً! ولنْ أسمحَ لكَ بأن تُدمّرَ مستقبلي من أجلهِ!"

تقدمَ زيادُ خطوةً نحوها. "هل تظنينَ أنكِ تستطيعينَ أن تقفي بوجهِ العمارتلي؟ هل تظنينَ أنّ تهديدك السخيفَ هذاَ سيُغيّرُ شيئاً؟ أنتِ تُغامرينَ بحياتكِ، وتُغامرينَ بسمعةِ العائلةِ كلها!"

"تهديدي ليسَ سخيفاً، يا زياد!" ردّتْ غفرانُ، وعيناها تلمعانِ بالغضبِ. "سأكُشفُ وجهَ الظلمِ، سأكُشفُ الفسادَ الذي تتورطُ فيهِ أنتَ والعمارتلي! اكتشفتُ كلَّ شيءٍ، شبكةَ تزويرِ الشهاداتِ، تقاريرَ ووثائق العقارات المزيّفةَ، الشركات الوهمية وشراء الدولار من بورصة العملة! سأنشرُ كلَّ شيءٍ، سأُفضحُكم جميعاً!"

كانتْ كلماتُ غفران كصاعقةٍ تضربُ زياداً. "شبكةَ تزويرِ الشهاداتِ.. تقاريرَ ملكية العقارات المزيّفةَ!" اخترقتْ عظامَهُ، كشفتْ كلَّ شيءٍ. أدركَ أنّها لا تُهددُ، بل تُعلنُ حقيقةً تُشيرُ إلى نهايتهِ. في تلكَ اللحظةِ، لم يعدْ يرى فيها أختهُ، بل رأى فيها عدواً، قنبلةً موقوتةً على وشكِ الانفجارِ في وجههِ. انطلقَ الغضبُ الجامحُ من أعماقهِ، غضبٌ مُتراكمٌ من الخوفِ واليأسِ والضغوطِ. "العمارتلي يريد الزواج منك، وأنت ترفضينه، والآن تريدين نشر أكاذيبك، لنْ تنشري شيئاً!" صرخَ بها زيادُ، "أنتِ لا تعرف ماذا يحدث لي ولعائلتنا إذا غضب العمارتلي؟" ومدَّ يديهِ ليُمسكها بعنفٍ "لن أسمح لك بتدميري." صرخ وزاد من الضغط، كانَ يُريدُ إسكاتها، إخراسَ صوتها الذي كانَ يهتفُ بالحقيقةِ.

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

كانتْ غفرانُ تُقاومُ بعنفٍ، تحاولُ التخلصَ من قبضتهِ. كانتْ يداهُ تضغطانِ على رقبتها، بقصدِ الترهيبِ والإخراسِ. كانتْ تُصارعُ، تكافحُ، تصدرُ أصواتاً مكتومةً، عيناها تتسعانِ بالرعبِ والألمِ. "اتركني... زياد... أرجوك..." توسلتْ كلماتها الأخيرةُ، التي اختنقتْ في حنجرتها. استمرَّ زيادُ في الضغطِ، لم يكنْ يُدركُ قوةَ قبضتهِ، لم يكنْ يُدركُ أن كلَّ لحظةٍ كانَ يُحاولُ فيها إسكاتها، كانتْ حياةُ أختهِ تنفلتُ من بينِ يديهِ. في لحظةٍ من الهلعِ، لحظةٍ لم يستطعْ السيطرةَ عليها، ارتختْ غفرانُ بينَ يديهِ. توقفَ جسدُها عن الحركةِ. توقفتْ المقاومةُ. توقفَ الصوتُ.

تراجعَ زيادُ خطوةً إلى الوراءِ، وعيناهُ تُحدّقانِ في غفران الملقاةِ على الأرضِ، جسدها هامدٌ، ورأسها مائلٌ بطريقةٍ غريبةٍ. لم يكنْ هناكَ صوتٌ، لا صراخٌ، لا مقاومةٌ. فقط صمتٌ مُطبقٌ، وصمتٌ أبديٌّ حلَّ في الغرفةِ. كانتْ يداهُ ترتجفانِ، مُلطّختينِ بدمِ ذنبٍ لم يكنْ يُريدُهُ. "غفران؟" همسَ بصوتٍ خافتٍ، لا يُصدّقُ ما فعلَهُ. لم يكنْ يُريدُ قتلها، بل كانَ يُريدُ إسكاتها، إخراسَ صوتها الذي كانَ يُهددُ عالمهُ بالانهيارِ. لكنّ الحقيقةَ كانتْ أقسى: قُتلتْ غفرانُ بينَ يديهِ، بسببِ خوفهِ، بسببِ غضبهِ، بسببِ الشبكةِ التي حاصرتهُ وحاصرتْها. كانَ إطارُ البابِ المخلوعِ شاهداً صامتاً على عنفٍ لم يكنْ مُخططاً لهُ، لكنّهُ كانَ حتمياً في عالمٍ تُشنقُ فيهِ الأرواحُ قبلَ أن تُعلنَ حقيقتها.

* * *

بعدَ أن سقطتْ غفرانُ هامدةً، غرقَ زيادُ في بحرٍ من

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

الصمتِ المطبقِ. يداهُ ترتجفانِ، وقلبهُ يخفقُ بجنونٍ، لكنَّ دماغهُ بدأَ يعملُ ببرودٍ مُخيفٍ، يُفكّرُ في العواقبِ. "العمارتلي... الشبكةُ... العائلةُ... الشرفُ." كلُّ هذهِ الكلماتِ تُدوّي في رأسهِ كأصواتِ الشياطينِ، تُذكّرهُ بأنّ حياتَهُ كلها قد انتهتْ إذا ما كُشفَ هذاَ السرُّ. لا وقتَ للحزنِ، لا وقتَ للندمِ. هناكَ شيءٌ واحدٌ فقط يُمكنُهُ فعلَهُ: طمسُ الحقيقةِ، نسجُ روايةٍ أخرى.

نظرَ زيادُ إلى غفران، جسدها الهامدُ يُلقي بظلالٍ باردةٍ على أوراقِها المتناثرةِ. كانتْ عيناها مفتوحتينِ، تُحدّقانِ في الفراغِ، كأنهما شاهدتانِ صامتتانِ على جريمتهِ. "لا بُدَّ أن يبدوَ الأمرُ كأنّها انتحرتْ." تلكَ هيَ الفكرةَ الأولى التي خطرتْ ببالهِ، الفكرةَ التي ستُصبحُ هيَ الحبلَ الذي سيُشنقُ عليهِ ضميرُهُ. يعلمُ أن روايةَ "الفشلِ الدراسيِّ" و"الضغوطِ النفسيةِ" هيَ الغطاءَ الجاهزَ لمثلِ هذهِ الجرائمِ في مجتمعهِ.

نظرَ زيادُ حولَ الغرفةِ، بحثاً عن أيِّ شيءٍ يُمكنُهُ أن يُساعدهُ في مسرحيتِهِ القادمة. وقعتْ عيناهُ على مروحةِ السقفِ العتيقةِ. "مروحةٌ... حبلٌ... انتحارٌ." تتشكلُ الخطةُ في رأسهِ بوضوحٍ مُرعبٍ. لكنّ لم يكنْ لديهِ حبلٌ. أينَ يُمكنُهُ أن يجدَ حبلاً في هذهِ الساعةِ المتأخرةِ من الليل؟ تذكرَ دكانَ أبي خالدٍ في نهايةِ الزقاقِ الخلفيِّ، الذي يفتحُ أبوابَهُ حتى ساعةٍ متأخرةٍ أحياناً، لبيعِ الأدواتِ المنزليةِ البسيطةِ.

تحرّكَ زيادُ بسرعةٍ، لكنْ بحذرٍ. لم يُردْ أن يُثيرَ أيَّ شبهةٍ. نزلَ السلالمَ بصمتٍ، وخرجَ من البيتِ بهدوء. الهواءُ باردٌ، ورائحةُ الترابِ المبللِ تملأُ الأنفاسَ، لكنّ زياداً لم

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

يشعرْ بشيءٍ سوى برودةِ الخوفِ الذي تملكتهُ. مشى بسرعةٍ في الأزقةِ، تُضيءُ لهُ بعضُ المصابيحِ الخافتةِ. وصلَ إلى دكانِ أبي خالدٍ، الذي كانَ على وشكِ الإغلاقِ. دخلَ زيادُ، ووجههُ مُتعبٌ، يُحاولُ أن يُخفي الفوضى العارمةَ التي تعصفُ بروحِهِ.

"أهلاً يا أبا خالدٍ، هل لديكَ حبلٌ سميكٌ؟" سألَ زيادُ بصوتٍ مُحاولاً أن يبدوَ طبيعياً. "أُريدُهُ لربطِ بعضِ الأشياءِ في البيتِ."

نظرَ إليهِ أبو خالدٍ باستغرابٍ. "حبلٌ سميك؟ بهذهِ الساعةِ؟ لماذا هذاَ الحبلُ بالذاتِ يا ولدي؟"

"لأصطادَ بهِ الحمامَ العنيدَ، يا أبا خالدٍ!" ردَّ زيادُ ضاحكاً ضحكةً قاسيةً، لم تكنْ ضحكةً حقيقيةً، بل كانتْ قناعاً زائفاً يُخفي وراءَهُ جحيماً. كانتْ تلكَ الضحكةُ ستترددُ في ذاكرةِ أمِّ حسنٍ، وستُصبحُ خيطاً في شبكةِ الحقيقةِ التي ستُكشفُ لاحقاً.

ناولَ أبو خالدٍ زياداً حبلاً أبيضَ سميكاً، لم يكنْ يُباعُ غالباً في دكانٍ بسيطٍ كهذا. كانَ الحبلُ جديداً، يلمعُ ببياضٍ مُرعبٍ تحتَ ضوءِ المصباحِ الخافتِ. دفعَ زيادُ ثمنَ الحبلِ، ولفّهُ بسرعةٍ في كيسٍ أسودَ، ثمّ غادرَ الدكانَ، كأنهُ ظلٌّ في الظلامِ. كانتْ كاميرا المراقبةِ القديمةِ في الدكانِ تلتقطُ كلَّ حركةٍ لهُ، تُسجّلُ بصمةً رقميةً لجريمةٍ كانَ يُحاولُ طمسَها.

عادَ زيادُ إلى البيتِ، ويدهُ تُمسكُ بالحبلِ الأبيضِ الباردِ. صعدَ إلى غرفةِ غفران، وجدَ جسدها لا يزالُ ملقىً على الأرضِ. بدأَ يُفكّرُ ببرودٍ مُخيفٍ. "يجبُ أن يبدوَ الأمرُ كأنها فعلتْ ذلكَ بنفسها." كانتْ المروحةُ في مركزِ السقفِ. جرَّ

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

زيادُ الجسدَ النحيلَ، رفعهُ ببطءٍ واحتضنه، ثمّ عقدَ الحبلَ حولَ عنقها. لم يكنْ يُجيدُ عقدَ الحبالِ. كانتْ العقدةُ بسيطةً، غيرَ مُحكمةٍ، وكأنّها عُقدت علىْ عجلٍ، أو كأنّها لم تكنْ تهدفُ إلى حملِ جسدٍ كاملٍ.

سحب سريرها باتجاه المروحة السقفية، رفعَ زيادُ الجسدَ إلى الأعلى، وحاولَ ربطَ الحبلِ في شفراتِ المروحةِ العتيقةِ. كانَ جسدُ غفران خفيفاً بشكلٍ مدهشٍ، كأنّ روحَها قد غادرتْهُ قبلَ أن يُعلقَ. ثبتَ الحبلَ في المروحةِ، لكنّ العقدةَ لم تكنْ قويةً بما يكفي لتُحملَ الجسدَ بثباتٍ كاملٍ. كانتْ رجلا غفران بعيدتينِ عن الأرضِ، في فراغٍ باردٍ. لم يكنْ هناكَ كرسيٌّ أو أيُّ وسيلةٍ تُشيرُ إلى أنّها صعدتْ بنفسها. لم يكنْ لدى زياد الوقتُ لكي يُحضرَ كرسياً، أو أن يُفكّرَ في كلِّ التفاصيلِ. أعاد السرير إلى مكانه بعيدا عن المروحة والجثة المتدلية، جمع الأوراق والكتب المتناثرة ووضعها على أحد الرفوف. الهدفُ هوَ الإيحاءُ بالانتحارِ بأسرعِ وقتٍ ممكنٍ.

نظرَ زيادُ إلى المشهدِ الذي صنعهُ. جسدُ غفران مُعلّقٌ، المروحةُ لا تدورُ، والحبلُ الأبيضُ يلفُّ عنقها. الصورةُ مُرعبة ٌ، لكنّها، في نظرهِ، حبلَ النجاةِ الوحيدَ لِعالمهِ المُنهارِ. صنعَ الحبلَ الذي سيُشنقُ عليهِ ضميرُهُ، ونسجَ الكذبةَ التي ستُكلفهُ روحهُ. كلُّ خيطٍ في ذلكَ الحبلِ الأبيضِ تَلطخَ بموتِ أختهِ.

* * *

في صباحِ اليومِ التالي، عندما انطلقتْ صرخةُ الأمِّ

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

الممزقةِ، وعندما وصلَ زيادُ إلى الغرفةِ ليجدَ غفران مُعلّقةً، كلُّ شيءٍ جاهزٌ. أظهرَ زيادُ حزناً مصطنعاً، وجهُهُ شاحبٌ، وعيناهُ خاليتانِ من الدموعِ، لكنّ قلبهُ يصرخُ صرخةَ الذنبِ. لم يكنْ ينتظرُ وصولَ الشرطةِ، بل بادرَ بإنزالِ الجثةِ، بحجةِ "حمايةِ شرفِ العائلةِ من نظراتِ الغرباءِ". كانَ هذاَ هوَ الجزءَ الأخيرَ من خطتهِ: محوُ أيِّ أثرٍ قد يُشيرُ إلى الجريمةِ، وتزييفُ مسرحِ الجريمةِ قبلَ أن تُعاينهُ الأعينُ الرسميةُ.

أخفى زيادُ الحبلَ الذي استخدمهُ. لم يُحرقْهُ في تلكَ الليلةِ نفسها، بل خبأهُ في مكانٍ سريٍّ، كأنهُ بقايا جريمةٍ لا يُمكنُ التخلصُ منها بسهولةٍ. وبعدَ أن أدلى بأقوالهِ للشرطةِ، ورسّخَ روايةَ "الانتحارِ بسببِ الفشلِ الدراسيِّ والضغوطِ النفسيةِ"، وبعدَ أن تمّتْ الجنازةُ على عجلٍ، ورفضَ الشيخُ الصلاةَ، شعرَ زيادُ بانتصارٍ باردٍ. نجحَ في التسترِ على جريمتهِ، نجحَ في حمايةِ نفسهِ وعالمهِ من الانهيارِ وأثبت للعمارتلي أنه الرجل الكفء. "انتهى كلُّ شيءٍ." همسَ لنفسهِ، وهوَ يبتلعُ مرارةَ الذنبِ التي كانتْ تتزايدُ في جوفهِ.

لكنّ هذاَ الانتصارَ كانَ خيبةً. روحُ غفران لا تزالُ تُطارِدهُ في أحلامهِ، في صحوتهِ، في كلِّ زاويةٍ من البيتِ. يرى إطارَ البابِ المخلوعِ، يرى المروحةَ التي لم تكن تدورُ في غرفتها، كأنها تُذكّرهُ بأنّ الحقيقةَ لا تُدفنُ، بل تعلّقُ في الهواءِ، وتستمرُّ معلقة، في انتظارِ من يجرؤُ على رفعِ رأسهِ ليرى ما خفيَ. في إحدى الليالي الباردةِ، بعدَ أيامٍ من الدفنِ، أخرجَ زيادُ الحبلَ الأبيضَ الذي خبأهُ. كانَ الحبلُ لا يزالُ

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

يحملُ رائحةَ الموتِ، ورائحةَ الذنبِ. أشعلَ زيادُ النارَ فيهِ، وقفَ يُشاهدُ النيرانَ وهيَ تلتهمُ خيوطَهُ البيضاءَ، تُحوّلها إلى رمادٍ أسودٍ. يُريدُ محوَ كلِّ أثرٍ، محوَ كلِّ دليلٍ. يعتقدُ أنّه بحرقِ الحبلِ، سيُحرقُ معه الذنبَ، وسيُحرقُ معه الحقيقةَ.

لم تلتهمْ النيرانَ سوى الخيوط البلاستيكية. لم تلتهمْ روحَ غفران التي لا تزالُ حيةً في الالعالم الرقمي، في عقولِ من أحبوها. يُؤمنُ زيادُ، بقناعتهِ الواهيةِ، أن "الحقيقةَ ستُدفنُ، بعد أن تُعلّقُ على مروحةٍ، وتصبح حكاية أخرى". لم يكنْ يعلمُ أنّ تلكَ المروحةَ كانتْ قد بدأتْ بالفعلِ في الدورانِ، وأنها ستُلقي بظلالها على عالمهِ كلهِ، وستُكشفُ كلَّ أسرارهِ. كانَ زيادُ قد عقدَ حبلاً لروحينِ: روحَ غفران التي قُتلتْ بدمٍ باردٍ، وروحَ نفسهِ التي شنقها بيدهِ، ليعيشَ في سجنٍ من الخوفِ والذنبِ لا يُمكنُهُ التحررُ منهُ أبداً. أصبحَ هوَ أسيرَ الحبلِ والحكاية التي نسجها ، مُطارَداً بظلالِ الحقيقةِ التي ظنَّ أنها دُفنتْ.

هل تُطمسُ الحقيقةُ في رمادِ حبلٍ مُحترق، أم أنّ كلَّ شعلةٍ تُطفئُ دليلاً، تُشعلُ لهيباً أعمقَ في قلوبِ من يرفضونَ الصمت، فتتحولُ المروحةُ العتيقةُ إلى مرآةٍ تدورُ، تُعيدُ عرضَ الفيلمِ الأخيرِ لروحٍ لم ترحلْ بعد؟

* * *

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

8

هل للصمتِ، حين يطول، أجنحةٌ تُحلقُ خلفَ الأبوابِ الموصدة، لتنحتَ على جدرانِ الأثيرِ أصداءَ لا تُدركُها الأذنُ البشَرية؟ في مدنٍ اعتادتْ على سرقةِ الصوتِ، وعلى وأدِ الحقيقةِ قبلَ أن تُعلنَ ميلادَها، يُصبحُ كلُّ همسٍ مقاومةً، وكلُّ كلمةٍ مُتسلّلةٍ من رحمِ الظلمةِ، خيطاً مرئياً في نسيجٍ لا ينقطع. فهل يكفي أن تُغلقَ عينٌ، أو أن يُدفنَ أثرٌ، لكي يُمحى وجودُ روحٍ كتبتْ بدمِها، وتركتْ بصمتَها على مرايا الأيامِ، تنتظرُ من يجرؤُ على رفعِ حجابِها، ليرى ما خلفَ الحقيقةِ الزائفةِ، وما في وجدانِ مدينةٍ اعتادتْ على الصمت؟

* * *

كانَ سكونُ الليلِ في شقةِ داليا بالمنصورِ لا يُطاقُ، أثقلَ من صمتِ المقابرِ، وأكثرَ إثارةً للشكِّ من كلِّ ضجيجِ بغدادَ المعتادِ. بعدَ عاصفةِ الهاشتاغِ وتهديداتِ القنواتِ وصفحات التواصل الاجتماعي المواليةِ، أصبحتْ داليا تعيشُ تحتَ وطأةِ قناعةٍ مُرّةٍ بأنّ العالم الرقميَّ، الذي ظنّتْ أنهُ فضاءٌ للحريةِ، قد تحوّلَ إلى شبكةٍ مُحكمةِ الإغلاقِ، تُراقبُ كلَّ حركةٍ، وتُخْرِسُ كلَّ صوتٍ يجرؤُ على كسرِ الصمت. لكنّ صوتَ غفران، الذي يدوّي في أعماقِ روحها، لم يكنْ لترضى بهذاَ الاستسلامِ.

في قلبِ هذاَ الحصارِ الرقميِّ، شكّلتْ مجموعةُ "غفران لا

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

تزالُ هنا" شمعةً تُضيءُ العتمةَ. تعمل داليا وخالدٌ، وبعضُ الأعضاءِ الموثوقينَ، كخلايا نحلٍ سرّيةٍ، يجمعونَ الخيوطَ، يُحلّلونَ البياناتِ، ويُحاولونَ فكَّ شفرةِ هذاَ اللغزِ المُعقدِ. خالدٌ، بمهاراتهِ التقنيةِ الفائقةِ، هوَ قلبَ هذهِ العمليةِ. يُشبهُ مُهندساً معمارياً يُعيدُ بناءَ مدينةٍ من الرمادِ، كلُّ سطرٍ من الوثائق، وكلُّ ملفٍ رقميٍّ، يُمثلُ حجراً أساسياً في بناءِ حقيقةٍ جديدةٍ لغفران.

تذكرتْ داليا كيفَ كانتْ غفرانُ تُخبرُها، بابتسامةٍ ساخرةٍ، عن مدونتها التي أسمتها "ألف ليلى وليلى عراقية". "لا أُريدُ أن تُصبحَ قصصُ النساءِ مجردَ أرقامٍ في تقاريرَ باردةٍ، يا داليا. أُريدُ أن تُروى قصصهنّ، أن تُحفظَ ذاكرتهنّ، أن تكونَ لهنّ ألفُ ليلةٍ وليلةٍ أخرى تُحكى فيها حقيقتهنّ المسروقة." كانتْ تلكَ الكلماتُ تتردُ في ذهنِ داليا كصدىً بعيدٍ. تؤمنُ غفرانُ بأنّ الكلمةَ المكتوبةَ هيَ الذاكرةُ الخالدةُ الوحيدةُ التي لا تُمكنُ للأنظمةِ أو الأفرادِ طمسَها.

يُصارعُ خالدٌ، لأيامٍ، أشباحاً رقميةً. يُحاولُ الوصولَ إلى أيّ بصمةٍ لغفران في عالمِ الإنترنتِ الواسعِ. خَطَتْ غفرانُ حذرةً جداً، ولأنها تُدركُ حجمَ المخاطرِ، عملت على أن تُخفي آثارها الرقميةَ بمهارةٍ. رسالتُها الأخيرةُ إلى الدكتورةِ إيمان عن إرسالِ نسخٍ احتياطيةٍ من إرشيفها الرقمي إلى بريدٍ إلكترونيٍّ آخرَ، هيَ الخيطُ الذهبيُّ. تتبّعَ خالدٌ هذاَ البريدَ الإلكترونيَّ، وعبرَ مهاراتهِ في استعادةِ البياناتِ وتحليلِ الشيفراتِ القديمةِ، بدأَ يُفكّكُ طبقاتٍ من التشفيرِ البسيطة التي كانتْ غفرانُ قد بنتها حولَ أرشيفها الرقمي، مع مواجهة بعض الصعوبات.

منشورات «ألف باء AlfYaa»

في ليلةٍ باردةٍ، ومع كوب القهوة الكبير الذي أعدته أمها لها، وبينما بدأت أصابعُ داليا تُحلّقُ فوقَ لوحةِ مفاتيحِ الكومبيوتر، تُساعدُ خالداً على الجانب الآخر من العالم الرقمي، في البحثِ عن كلماتٍ مفتاحيةٍ، أطلقَ خالدٌ صرخةً خافتةً. "وجدتها!" كانتْ عيناهُ تلمعانِ ببريقٍ من الانتصارِ، لكنّ صوتهُ كانَ يختلطُ بالذهولِ. "إنها هنا... مدونةٌ كاملةٌ، مُشفرةٌ، لم تُمسسْها يدٌ بشريةٌ منذُ أن كتبتها غفرانُ."

كانَ الشعورُ الذي اجتاحَ داليا في تلكَ اللحظةِ مُركّباً. مزيجٌ من الارتياحِ العميقِ، والحزنِ المُتجددِ، والأملِ المُباغتِ. أصبحتْ غفرانُ، أخيراً، صوتاً حقيقياً. "بصمةُ الروحِ المحجوبةِ." هكذا وصفَ خالدٌ المدونةَ. لم تكنْ مجردَ مجموعةِ نصوصٍ، بل روحَ غفران نفسها، تتنفسُ بينَ السطورِ، تُحدّقُ فيهم من خلفِ شاشةٍ مُضيئةٍ.

بدأَ خالدٌ في فكِّ التشفيرِ، مجلداً بعدَ مجلدٍ، ملفاً بعد ملفٍ. الكلماتُ تتكشفُ ببطءٍ، كأنّها تُحرّرُ من سجنٍ رقميٍّ، تُلقي بظلالها على الجدرانِ الباردةِ لغرفةِ داليا. كلُّ حرفٍ يُعطي غفران بُعداً جديداً، يُعيدُ لها هويتَها المسروقةَ. "هذاَ ليسَ مجردَ يومياتٍ،" قالَ خالدٌ بصوتٍ خافتٍ، عيناهُ لا تزالانِ مُحدّقتينِ في الشاشةِ. "هذهِ وثيقةٌ بل مجموعة متنوعة من الوثائق. هذهِ هيَ الحقيقةُ التي حاولوا قتلَها."

كانَ الأعضاءُ الآخرونَ في المجموعةِ يُتابعونَ المشهدَ في صمتٍ، يتنفسونَ بصعوبةٍ، كأنّهم يُشاهدونَ ولادةَ نجمةٍ جديدةٍ في سماءِ الظلامِ. تلكَ المدونةُ، بصوتِ غفران الذي لم يُخْرسْ، هيَ الرمحَ الوحيدَ الذي يُمكنُهُ أن يمزّقَ هذاَ

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

الصمتَ المطبقَ، وأن يُعيدَ للحقيقةِ مكانتها التي سُلبتْ منها. "علينا أن نُدركَ حجمَ ما وجدناهُ،" قالتْ داليا، وقد استعادتْ بعضاً من هدوئها. "هذهِ ليستْ مجردَ كلماتٍ، بل هيَ روحٌ. يجبُ أن نتعاملَ معها باحترامٍ، وبحذرٍ، وبذكاءٍ. لأنّ هذهِ الروحَ، إنْ أُطلقَتْ بحكمةٍ، ستقلبُ الطاولةَ على كلِّ كاذبٍ."

* * *

معَ كلِّ ملف كانَ خالدٌ يفكُّ تشفيره، كانتْ روحُ غفران تعودُ إلى الحياةِ في غرفةِ داليا. لم تكنْ مجردَ نصوصٍ، بل كانتْ بناءً من الكلماتِ يُعيدُ تشكيلَ مفهومِ الحريةِ والهويةِ في مجتمعٍ يُحاولُ هدمَ كلِّ ما هوَ جميلٌ ومتمردٌ. تُشاهدُ داليا وتُصغي، وكأنها تُحادثُ غفران نفسها، تكتشفُ أبعاداً جديدةً لصديقتها، أبعاداً لم تكنْ تُدركُها تماماً، حتى في أوجِ صداقتهما. تُشبهُ المدونةُ نهراً جارياً من الأفكارِ، يتدفقُ عبرَ شاشاتِ خالدٍ، يُغذّي وعيَ المجموعةِ ويُشعلُ فيهم جذوةَ الأمل.

بدأتْ المدونةُ بمقدمةٍ تحمل روحاً ملهمةً، وكأنّ غفران تُهديها لروحِ بغدادَ المنهكة:

"في مدينةٍ تُبنى جدرانُها من طينِ الحزنِ، وتُسقَفُ بيوتُها بأجنحةِ الغربان السود، أبحثُ عن شرفاتٍ تطلُّ على أفقٍ أوسعَ، عن أبوابٍ تُفتحُ لا لتُغلقَ، عن نوافذَ تُدخلُ الضوءَ لا الغبارَ. أُريدُ أن أبني مدينةً، لا بجسورٍ من إسمنتٍ وحديدٍ، بل بجسورٍ من أرواحٍ حرةٍ، ترفضُ أن تُسجنَ في صناديقِ العاداتِ، أو أن تُكفّنَ بعباءةِ التقاليدِ الباليةِ. إنّ العمارةَ الحقيقيةَ ليستْ في الحجرِ، بل في الروحِ التي تسكنُ الحجرَ، وفي الحريةِ التي تُبنى داخلَ أسوارِهِ."

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

تلا ذلكَ سلسلةٌ من المداخلِ التي تُظهرُ غفران كمعماريةٍ مُتمرّدةٍ، تُحلّلُ الفضاءَ الاجتماعيَّ والسياسيَّ من خلالِ رؤيتها الهندسيةِ. كانتْ تُركّزُ على تأثيرِ التصميمِ العمرانيّ على حياةِ النساءِ، وكيفَ أن "العمارةَ التقليديةَ، رغمَ جمالِها، وفعاليتها في أزمنة سابقة، أصبحتْ تُكبّلُ الأفرادَ، خصوصاً النساءَ، داخلَ جدرانٍ اجتماعيةٍ غيرِ مرئيةٍ". كانتْ تتحدثُ عن فكرةِ "الجدرانِ التي لا تُرى"، الجدرانِ التي تُشيّدُها العقولُ، وتُفرضُها التقاليدُ، لتُحاصرَ بها المرأةَ في مساحةٍ ضيقةٍ من الوجودِ.

"كلَّما نظرتُ إلى بيوتِ بغدادَ القديمةِ، بـ'شناشيلها' الجميلةِ التي تُخفي العيونَ، بـ'أبوابها' الثقيلةِ التي تُغلقُ على أسرارِ العوائلِ، أرى فيها جمالاً حزيناً. جمالٌ يُخبّئُ وراءَهُ سجناً للنساءِ. جدرانٌ تُعلّمنا الصمتَ، نوافذُ تُعلّمنا الاختباءَ. هل يُمكنُ أن نبني مدناً تُتيحُ للمرأةِ أن ترى السماءَ دونَ أن تُشعرَ بالخوفِ من عيونِ المتربصين؟ هل يُمكنُ أن نبني فضاءاتٍ تُتيحُ لها الحركةَ والتعبيرَ دونَ أن تُجبرها على التمردِ على هويتها، أو على التخليّ عن قيمها؟ أُريدُ أن أبني مدينةً يُمكنُ للمرأةِ فيها أن تكونَ هيَ، لا ما يُرادُ لها أن تكونَ."

كانتْ هذهِ المداخلُ تُبينُ عمقَ تفكيرِ غفران الذي يتجاوزُ الهندسةَ المعماريةَ إلى الفلسفةِ الاجتماعيةِ والسياسيةِ. تُفكّرُ في بناءِ مجتمعٍ أكثرَ عدلاً، لا مجردِ مبانٍ. وتُشيرُ إلى أنّ "سردياتِ الشرفِ" ليستْ مجردَ قصصٍ تُروى، بل هيَ "قوالبُ معماريةٌ" مُستعارة، تُحبسُ فيها أرواحُ النساءِ.

ثمّ جاءَ المدخلُ التي تُركّزُ فيها على "قصصِ النساءِ

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

المفقوداتِ". كانتْ غفرانُ تجمعُ قصصاً حقيقيةً لنساءٍ في العراقِ، قُتلنَ أو اختفينَ، ثمّ لُفّتْ قصصهنّ برداءِ "الانتحار" أو "الغيابِ المجهول". تُعيدُ صياغةَ هذهِ القصصِ بأسلوبٍ أدبيٍّ مؤلمٍ، تُعطي صوتاً للضّحايا، تُعيدُ إليهنّ سرديتهنّ المسروقةَ.

"كم من ليلى وكم من سُعادَ وكم من زينبَ اختفينَ في هذاَ البلدِ، ثمّ قيلَ لنا إنّهنّ 'انتحرنَ' أو 'هربنَ معَ عشيقٍ' أو 'تزوّجنَ من رجلٍ لا يُرضي الأهلَ'؟ كم من امرأةٍ قُتلتْ ثمّ دُفنتْ حقيقتها معَ جسدها، لكي يُحفظَ 'شرفٌ' هشٌّ كقشرةِ البيضةِ؟ أُريدُ أن أروي قصصهنّ، لا لكي أُدينهنّ، بل لكي أُحرّرَ أرواحهنّ من قيودِ الكنايةِ والهمسِ. أريدُ أن أُخبرَ العالمَ بأنّ هؤلاءِ النسوةَ لم يَمتنَّ أو يَنتَحرنَّ، بل قُتلنَ، وقُتلتْ معهنّ حقيقةٌ كاملةٌ. أُريدُ أن أُثبتَ أنّ كلَّ حبلٍ يُشنقُ جسداً، هوَ حبلٌ آخرَ يُشنقُ بهِ ضميرُ مجتمعٍ بأكملهِ. وأن كل جسد محروق، هو حرقٌ للقيم السامية التي يجب أن يحملها المجتمع "

"العنف الرقمي ضد النساء في العراق تحول إلى وباء صامت يهدد أمنهن وكرامتهن باستخدام أدوات العصر. فمن خلال التصيد الإلكتروني، تُستدرج الضحايا لسرقة معلوماتهن الحميمة وابتزازهن. وتتحول المنصات الاجتماعية إلى ساحة للملاحقة والمطاردة المستمرة التي تزرع الخوف. ويأتي التزييف العميق كأخطر الأسلحة، حيث تُستخدم تقنيات جديدة لصنع محتوى مشين بتوقيع مزيف يدمر السمعة في لحظات. ويكتمل التشهير بنشر

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

الأكاذيب والإشاعات كقذائف إلكترونية لا تُمحى.

هذا العنف ليس افتراضياً؛ تداعياته حقيقية وقاسية. فهو يدفع النساء إلى الانكفاء والعزلة، ويقتل طموحاتهن في الدراسة والعمل والمشاركة، بل ويهدد سلامتهن الجسدية تحت ذرائع "الشرف"، ووصمة مجتمعية تجبر الضحايا على الصمت.

مواجهة هذا الوباء تتطلب صحوة عاجلة. فحماية الفضاء الرقمي للنساء ليست ترفاً، بل هي استثمار في مستقبل العراق. فبدون أمن إلكتروني للجميع، وخاصة للنساء، تتحول ثورة الاتصال إلى سجن افتراضي يعيد إنتاج التمييز والعنف بأدوات جديدة."

لغةُ غفران في هذهِ المداخلِ مُفعمةٌ بالصورِ البلاغيةِ والرمزيةِ، تُظهرُ تأثيرَ مدونةِ "ألف ليلى وليلى عراقية" عليها. تُحلّلُ كلَّ قصةٍ من منظورٍ نقديٍّ، تُسلطُ الضوءَ على التناقضاتِ في الرواياتِ الرسميةِ، وتُشيرُ إلى العنفِ الواقعي الذي يُمارسُ على الضحيةِ والرمزيِّ بعدَ موتها، ليُحوّلها من كائنٍ حيٍّ إلى مجردِ "وصمةِ عارٍ" أو "عبرةٍ للآخرين".

"يقولُ الشيخُ عبد المهدي إنّ 'الانتحارَ جحودٌ بنعمِ اللهِ، وخيانةٌ للروحِ'. ويقولُ إنّ الفشلَ في الدينِ والأخلاقِ هوَ السببُ. لكنني أرى جحوداً آخرَ، جحودَ المجتمعِ بحريةِ الفردِ، وخيانةَ الأهلِ لروحِ بناتهِم، حينما يُجبَرنَ على قوالبَ لا تُناسبُهنّ. أرى أنّ الروحَ التي تُقتلُ باسمِ الشرفِ، أو تُشنقُ باسمِ الفشلِ، هيَ روحٌ تُسرقُ منها حتى الحقُّ في أن تُدفنَ بكرامةٍ، أو أن تُروى قصتُها بصدقٍ. أليسَ هذاَ هوَ

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

الجحودُ الحقيقيُّ؟ أليسَ هذاَ هوَ الخيانةُ الكبرى؟"

كلماتُ غفران تُصيبُ داليا في الصميمِ، تُذكّرُها بحديثِ زياد وخطابِ الشيخِ عبد المهدي الذي حاولَ طمسَ حقيقةِ صديقتها. أدركتْ داليا أن غفران حاربَتْ هذهِ السرديات الجاهزةِ بفكْرها وقلمها حتى قبلَ أن تُصبحَ هيَ نفسها ضحيةً لها. تُظهرُ المدونةُ روحاً لا تعرفُ الخوفَ، روحاً مُصممةً على تحريرِ ذاتها من كلِّ قيدٍ، حتى لو كانَ ثمنُ ذلكَ باهظاً. بصمةُ الروحِ المحجوبةِ، التي كُشفتْ أخيراً، تُعلنُ عن ميلادِ وعيٍ جديدٍ، وعيٍ يُمكنهُ أن يُغيّرَ وجهَ بغدادَ إلى الأبدِ، مهما بلغتْ قوةُ حبالِ الكذبِ التي تُحاولُ أن تُشنقهُ.

* * *

معَ تقدّمِ داليا وخالدٍ في قراءةِ مدونةِ غفران، بدأَ تواترُ المداخلِ يتغيرُ. لم تعدْ مجردَ تأملاتٍ فلسفيةٍ أو تحليلاتٍ اجتماعيةٍ، بل أخذتْ طابعاً أكثرَ قتامةً وإلحاحاً. بدأتْ غفرانُ تُسجّلُ تفاصيلَ لم يُمكنْ لداليا أن تفهمَها في حينها، لكنّها الآنَ، وبعدَ وفاتها، أصبحتْ كرسائلَ ُفكّكُ لغزَ رحيلها. تُصبحُ المدونةُ أكثرَ حميميةً وشخصية، كأنّ غفران تُحدّثُ شخصاً خفياً، أو ربما تُحدّثُ الأيامَ القادمةَ نفسها.

في إحدى المداخلِ، التي كُتبتْ قبلَ وفاتها بأسابيعَ قليلةٍ، بدأتْ نبرةُ الخوفِ تتسللُ إلى كلماتها:

"أشعرُ كأنّ جدرانَ غرفتي، التي لطالما كانتْ ملاذي، قد أصبحتْ تُراقبني. أشباحٌ غيرُ مرئيةٍ تتسللُ من الزوايا، عيونٌ تُحدّقُ فيّ من خلفِ الستائرِ. هل هوَ مجردُ وهمٍ؟ هل

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

بدأتُ أفقدُ عقلي في هذاَ الجنونَ الذي يُحيطُ بنا؟ أم أنّ الحقيقةَ أشدُّ قسوةً من أيِّ وهمٍ؟ أرى الظلالَ تتبعني في الطرقاتِ، أسمعُ الهمساتِ تلاحقني في الجامعةِ، حتى في أحلامي، أرى قيوداً تُشدُّ حولَ روحي، تُحاولُ أن تُسجنَني في صندوقٍ أسودَ."

تلا ذلكَ مدخلٌ آخرُ أكثرُ وضوحاً، يُشيرُ إلى تدخلاتٍ مباشرةٍ في حياتها الشخصيةِ:

"هاتفي اختفى اليومَ. ليستْ المرةَ الأولى، لكنّ هذهِ المرةَ، شعرتُ بأنّ هناكَ يداً خفيةً تُقلّبُ في محتوياته. أقسمُ أنني أُغلقُهُ قبلَ النومِ، وأضعُهُ تحتَ وسادتي. لكنني أستيقظُ لأجدَهُ في مكانٍ آخرَ، أو لأجدَ بطاريةً فارغةً، رغمَ أنّني شحنتُهُ بالكاملِ. هل هناكَ من يُفتّشُ في عالمي الرقميّ؟ هل هناكَ من يُحاولُ أن يسرقَ بصماتي، ليُفكّكَ روحي؟ أشعرُ بأنّ الهواءَ الذي أتنفسُهُ أصبحَ مُلَوّثاً بالشكِّ، وبأنّ كلَّ كلمةٍ أقولها، وكلَّ سطرٍ أكتبهُ، يُمكنُ أن يُستخدمَ ضدي في محكمةٍ لا أراها، ولا أُدركُ قوانينها."

هنا، توقفتْ داليا عن القراءةِ للحظةٍ، ورفعتْ رأسها. "هل تذكرُ يا خالدُ، عندما تكلمنا عن أنّ هاتفَ غفران اختفى بعدَ وفاتها؟ لم نجدهُ أبداً. وزيادُ قالَ إنهُ ربما أُلقيَ بعيداً عن طريقِ الخطأِ." كانتْ عينا خالدٍ تلمعانِ بتركيزٍ حادٍّ. "هذاَ يُؤكدُ ما كنّا نشكُّ فيهِ. إنها ليستْ مجردَ حوادثٍ عابرةٍ. إنها علاماتُ مراقبةٍ، وبصماتُ تدخلٍ. غفرانُ كانتْ تُدركُ أنها مُستهدفةٌ."

ثمّ تابعتْ غفرانُ في مدخلٍ آخرَ، تُلمّحُ بوضوحٍ إلى أبحاثها:

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

"مشروعي عن 'أشكال ودوافع العنف في تقارير الانتحار ورمزيته' أصبحَ كشبحٍ يُطارِدني. كلُّما تعمّقتُ فيهِ، كلَّما شعرتُ بأنّني أُلامسُ أعصاباً مكشوفةً، وشبكةً من الظلامِ تُريدُ أن تبقى مُختفيةً. اكتشفتُ أموراً لا تُصدّقُ. تلاعبٌ بالتقاريرِ الرسميةِ، تواطؤٌ بينَ جهاتٍ أمنيةٍ وقضائيةٍ ودينيةٍ، لتبريرِ قتلِ النساءِ تحتَ مسمى 'الشرفِ' أو 'الانتحارِ'. إنها ليستْ مجردَ حوادثٍ فرديةٍ، بل هيَ منظومةٌ كاملةٌ، تُغذّيها مصالحُ فاسدةٌ، وتُدعمُها عقلياتٌ مُتحجرةٌ."

كانتْ هذهِ المداخلُ تُشيرُ بوضوحٍ إلى الشبكةِ التي كانتْ غفرانُ على وشكِ كشفها، الشبكةِ التي يتورطُ فيها زيادُ ومهدي العمارتلي (وإنْ لم تُسمّهما غفرانُ صراحةً في المدونةِ). "كانتْ غفرانُ قنبلةً موقوتةً،" همسَ خالدٌ، وعيناهُ تُحدّقانِ في الكلماتِ على الشاشةِ. "كانتْ تعلمُ كلَّ شيءٍ، وكانتْ على وشكِ تفجيرِ كلِّ شيءٍ."

وأخيراً، جاءَ المدخلُ الأخيرُ، المدخلُ الذي كُتبَ قبلَ ساعاتٍ قليلةٍ من وفاتها، المدخلُ الذي سيُصبحُ صرخةً تُدوّي في فضاءِ الأثيرِ إلى الأبدِ. الكلماتُ مكتوبةً بلهجةٍ مُتعبةٍ، لكنّها تحملُ تصميماً لا يلينُ، ووعياً حاداً بمصيرٍ مُحتمٍ.

"رأيتُ كيف تُدفن الحقائق تحت أكوامٍ من الورق المكتوب بلغةٍ جامدة، وكيف تتحول حياةُ امرأةٍ إلى مجرد رقمٍ في إحصائيةٍ أو سطرٍ في تقريرٍ رسميٍ يُبرّر الجريمة. إن 'سلطة الكذبة' هي أشد فتكاً من أي حبلٍ، لأنها تُشنق الروح قبل الجسد، وتُفني الذاكرة قبل أن تُمحى الآثار. أخشى أن يأتي يومٌ أكون فيه مجرد قصةٍ أخرى، مُلصقةً

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

على جدار النسيان، مُغطاةً بعباءة 'الانتحار' التي تُخفي وراءها وجهاً قبيحاً للحقيقة. لا أخشى الموت، بل أخشى أن يُسرق صوتي، أن يُسرق قصتي وسردي، أن تُسرق حقيقتي. لهذا أكتب، ليكون كل حرفٍ شاهداً، وكل كلمةٍ مقاومةً، وكل جملةٍ محاولةً أخيرةً لانتزاع روحي من براثن الصمت."

"أشعرُ بأنّ النهايةَ قريبةٌ. إنهم يُراقبونَني عن كثبٍ. إنّ الظلالَ أصبحتْ أقربَ من أيِّ وقتٍ مضى. أخي يُلحُّ عليّ ويهددني يوميا، أصبحتُ، في نظرِهم، تهديداً لا يُمكنُ التسامحُ معهُ. لا أعرفُ ماذا سيحدثُ لي، أو متى سيحدثُ. لكنني أريدُ أن أُسجّلَ هنا، وفي كلِّ مكانٍ يُمكنني الوصولُ إليهِ، أنني لن أستسلمْ، ولن أنتحرْ. أرسلتُ نسخةً أخيرةً من بحثي كاملاً إلى بريدٍ إلكترونيٍّ آمنٍ (تذكرتْ داليا أن الدكتورةَ إيمانَ هيَ من استلمتها). تركتُ لكمَ خيوطَ الحقيقةِ. واجبُكم أن تجمعوها. يجبُ أن تستمروا في البحثِ، يجبُ أن تستمروا في قولِ الحقيقةِ. لا تسمحوا لهم بأن يسرقوا صوتي. لا تسمحوا لهم بأن يسرقوا سردي. لأنّهم إن فعلوا ذلكَ، فسيكونونَ قد قتلوني مرتينِ.

إذن... إذا قرأتم هذاَ... فأنا لم أنتحرْ، بل أنا اختطفتُ من سردي."

ضربتْ تلكَ الكلماتُ كصاعقةٍ روحَ داليا. ارتجفَ جسدها كلهُ، وبدأتْ الدموعُ تنهمرُ من عينيها، لا دموعَ حزنٍ فحسب، بل دموعَ غضبٍ مقدسٍ، ودموعَ تصميمٍ لا يلين. "اختطفتُ من سردي." كانتْ تلكَ هيَ الجملةَ التي ستُصبحُ

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

نشيداً للعدالةِ، صرخةً تُفضحُ كلَّ كاذبٍ، وتُعيدُ لغفران صوتها الذي سُرقَ. هذهِ هيَ الوصيةَ الأخيرةَ من روحٍ لم تُهزمْ، روحٍ قررتْ أن تُحاربَ حتى بعدَ موتها، لتُعلنَ للعالمِ أجمعَ أن الحقيقةَ لا تُشنقُ بحبلٍ، بل ستُعلّقُ على أيام الزمنِ، تنتظرُ من يجرؤُ على رفعِ رأسهِ ليرى ما خفيَ.

لم تكن هذه الكلمات مجرد نبوءةٍ، بل صرخةً استباقيةً، وشاهداً مُتعمداً على ما سيأتي. تعلم غفران، بحدسها وذكائها الحاد، أن هناك من يُريد لها الصمت، أن هناك من يُريد أن يُطفئ نورها الذي يهدد بكشف ظلامٍ مُطبِق. لم يكن موت غفران هو النهاية، بل مجرد بدايةٍ لحربٍ لم تُعلن بعد، حربٍ بين الحقيقة وسلطة الكذبة، بين صوتٍ يُراد له أن يُدفن، وبين أذنٍ تُصغي في الظلام، تُحاول أن تُعيد له النبض.

فهل تستطيع حقاً أي يدٍ، مهما بلغت قوتها، أن تُطمس أثرَ روحٍ كتبت حروفها بالدم، وتركتها تتأرجح بين صفحات الزمان، كرسالةٍ في زجاجةٍ تنتظر من يعثر عليها في بحرٍ من النسيان؟

* * *

لم يكنْ هناكَ مجالٌ للترددِ بعدَ قراءةِ تلكَ المداخلِ الأخيرةِ من مدونةِ غفران. الوصيةُ واضحةٌ، والرسالةُ لا تحتملُ التأويلَ. "اختطفتُ من سردي." تلكَ الجملةُ هيَ الشرارةَ التي أُطلقتْ في قلبِ داليا وخالدٍ والمجموعةِ كلها. غفرانُ تُطالبُهم بالعدالةِ، ليسَ بدموعِ الحزنِ، بل بقوةِ الحقيقةِ.

"علينا أن ننشرَها فوراً." قالَ خالدٌ بصوتٍ حاسمٍ، عيناهُ

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

لا تزالانِ تلمعانِ بالغضبِ المُقدّسِ. "كلَّ المدونةِ. كلَّ كلمةٍ. كلَّ بصمةٍ لروحِ غفران. كل صور غفران ومشاركتها في انتفاضة تشرين. يجبُ أن نُطلقَها في الفضاءِ الرقميّ، لكي يرى الجميعُ الحقيقةَ التي حاولوا دفنها." تُومئُ داليا برأسها، الدموعُ لا تزالُ تنهمرُ من عينيها، لكنها كانتْ دموعَ قوةٍ، لا ضعفٍ. " يجبُ أن نكونَ حذرينَ. سيتعرضُ الموقعُ للهجومِ. يجبُ أن نُضمنَ انتشارَ النسخِ الاحتياطيةِ."

أعدَّ خالدٌ خطةً مُحكمةً. سيُنشئُ نسخةً جديدةً من مدونةِ داليا "يوميات قضية غفران" على خادمٍ خاص، باستخدام نظام صلاحيات يدعم أدوار متعددة، مع تشفير hash لكلمات المرور، وحماية من ثغرات SQL Injection، ومعززة بحماية من ثغرات مزور الطلبات عبر الموقع CSRF عبر استخدام رمز تحقق فريد لكل جلسة وإضافته إلى كل نموذج أو طلب حساس. بعد ذلك سيُحمّلُ عليها مدونةَ غفران "ألف ليلى وليلى عراقية" كاملةً، معَ مقدمةٍ من داليا تُوضحُ السياقَ. ثمّ، في اللحظةِ الحاسمةِ، سيُطلقُها في العالم الرقميِ، وسينشرُ روابطها عبرَ شبكةٍ واسعةٍ من الحساباتِ البديلةِ، وسيُرسلُها إلى صحفيينَ وناشطينَ. "أتوقع أن لا يستمر الموقع فترة طويلة. بالتأكيد سيتعرض للهجوم" أوضح خالد ذلك لأعضاء المجموعة، "حتى لو أُغلقَ الموقعُ الأصليُّ،" قالَ خالدٌ، "فلنْ يستطيعوا إغلاقَ كلِّ نسخةٍ. حين تُطلقُ الحقيقةُ، مرةً، لا تُمكنُ أن تُسجنَ."

في صباحٍ جديدٍ، صباحٍ وُلدَ من رحمِ الظلامِ، أُطلقَتْ مدونةُ غفرانَ السريةُ. كانتْ الكلماتُ تتطايرُ في الفضاءِ

منشورات «ألف باء AlfYaa»

الرقميِّ، كأنها أسرابٌ من الطيورِ المُحرّرةِ، تُحلّقُ فوقَ سماءِ بغدادَ المتربةِ، تُعلنُ عن بدايةِ عصرٍ جديدٍ. "#غفران_لا_تنتحر #أنا_اختطفت_من_سردي" كانَ هذاَ هوَ الهاشتاغُ الجديدُ الذي أُطلقَ معَ المدونةِ. لم يكنْ مجردَ هاشتاغٍ، بل كانَ صرخةً، نشيداً، تحدياً مباشراً لكلِّ كاذبٍ.

انتشرتْ المدونةُ كالنارِ في الهشيمِ. بدأتْ الآلاف من الناسِ في العراقِ وخارجهِ في قراءةِ كلماتِ غفران، في اكتشافِ روحها المُتمرّدةِ، في إدراكِ حجمِ المؤامرةِ التي لُفّتْ بها. تتوالى التعليقاتُ، تتراوحُ بينَ الذهولِ، والغضبِ، والحزنِ العميقِ. "فتاةٌ بهذهِ الروحِ والذكاءِ لا يُمكنُ أن تنتحرَ!" كتبَ أحدهم. "قُتلتْ لأنها كانتْ تُضيءُ طريقَ الحقيقةِ!" علّقَ آخر. "كلُّنا غفران. كلُّنا نُختطفُ من سردنا كلَّ يومٍ!" كتبتْ ناشطةٌ شابةٌ، مُعبّرةً عن شعورٍ جماعيٍّ.

لم تمرَّ سوى ساعاتٍ قليلةٍ، حتى بدأتْ الأجهزةُ الأمنيةُ والجهاتُ الموالية في شنِّ هجومٍ رقميٍّ مُنظّمٍ على مدونةِ "يوميات قضية غفران". الخوادمُ تُهاجمُ من كلِّ اتجاهٍ، تُحاولُ إغلاقَ الموقعِ، محوَ كلِّ أثرٍ. "توقّعنا ذلكَ،" قالَ خالدٌ بصوتٍ مُتعبٍ، وعيناهُ تُحدّقانِ في شاشاتهِ التي تُظهرُ الهجماتِ المتزايدةَ. "لكننا كناَ مُستعدينَ."

وبعدَ معركةٍ رقميةٍ شرسةٍ استمرتْ لأيامٍ، تمكّنتْ القوى المُتنفذةُ من السيطرة على الموقعِ الأصليِّ للمدونة. ظهرتْ رسالةٌ على الشاشةِ: "لن تنجحوا أبدا." بالإضافة إلى منشورات تؤكد عملية الانتحار. تلكَ هيَ النهاية المتوقعة، النهاية السريعة لموقعٍ تجرّأَ على قولِ الحقيقةِ في زمنِ الكذبِ.

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

لكنّ السيطرة على الموقعِ لم تكنْ نهايةَ المطافِ. فقد كانتْ نسخٌ لا حصرَ لها من مدونةِ غفران قد انتشرتْ بالفعلِ. لقطات شاشة، ملفاتُ PDF، صفحاتٌ مُعادةٌ تُنشرِ على مدوناتٍ أخرى، على مجموعاتٍ في تليغرام، على قنواتٍ خاصةٍ. أعدَّ خالدٌ شبكةً من الأنهارِ الرقميةِ لتوزيعِ الحقيقةِ، شبكةً لا يُمكنُ لأيِّ سدٍّ أن يوقفَ تدفقَها. روحُ غفران تحرّرتْ بالفعلِ، وأصبحتْ جزءاً من الذاكرةِ الجماعيةِ لجيلٍ يرفضُ الصمتَ.

في تلكَ الليلةِ، بينما كانتْ الأخبارُ تُعلنُ عن "إغلاقِ الموقعِ المُحرّضِ"، و"الانتصارِ على دعاةِ الفتنةِ"، جلست داليا في غرفتها، تُحدّقُ في شاشتها. المدونةُ أُغلقتْ، نعم، لكنّ روحَ غفران لا تزالُ حية، تُحلّقُ في العالم الرقميّ، تُشعلُ لهيباً في قلوبِ الملايينِ. الحقيقةُ قد أُطلقَتْ، وأصبحتْ صدىً مَسموعاً، صدىً يُمكنُهُ أن يرى فيهِ كلُّ شخصٍ وجهَ حقيقتهِ، ووجهَ الظلمِ الذي يعيشُ فيهِ.

في أزقةِ بغدادَ المتعبةِ، تُرى أشباحُ الكلماتِ تتراقصُ على الجدرانِ الباردةِ، حقيقةٌ لا تُدركُها الأعينُ، لكنها تهزُّ الأرواحَ، تُشعلُ فيها نيرانَ البحثِ عن العدالةِ. فهل تُطفئُ نيرانُ القمعِ لهيبَ روحٍ كتبتْ بدمِها، أم أنّ كلَّ إغلاقٍ لبابٍ، هوَ فتحٌ لألفِ نافذةٍ، تُطلُّ منها عيونٌ مُتلهفةٌ على سرديةٍ أخرى، سرديةٍ تُصرُّ على الانبعاثِ من رمادِ النسيان، لتُعلّقَ في سماءِ الأثيرِ بصمةَ روحٍ محجوبةٍ، لنْ تُسكتَها يدٌ بشريةٌ أبداً؟

* * *

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

منشورات «ألف باء AlfYaa»

منشورات «ألف باء AlfYaa»

9

هل تُطيقُ الحقيقةُ أن تُسجنَ في عالمٍ مُزوّر، بينما هناكَ روحٌ أخرى تستعدُّ لتفتحَ أبوابا فيه؟ أم أنّ كلَّ كذبةٍ تُدفنُ هيَ بذرةٌ لثورةٍ تُعلنُ ميلادَها من تحتِ الركام، لتُعيدَ للضحيةِ سردَها المسروق؟ في بلادٍ تُبنى جدرانُها من الصمتِ وتُسقَفُ بسقفٍ من الخوف، يصبحُ الجسدُ نفسه، بعدَ الموتِ، ساحةً للصراع، مرآةً تُعكسُ فيها وجوهُ الظالمينَ وصرخاتُ المظلومين. ولكنْ، هل تستطيعُ الأيادي التي عقدتْ حبالَ الكذبِ أن تُطفئَ وهجَ روحٍ تُصرُّ على الانبعاثِ من رمادِ النسيان، لتُعلنَ للعالمِ أجمعَ أن الجسدَ ليسَ ملكاً للعائلةِ، بل هوَ وثيقةٌ جنائيةٌ، شاهدٌ أبديٌّ لا يكذب؟

* * *

كانتْ بغدادُ، في بدايةِ شتائها الجَدْبِ والبارد، تُلقي بظلالِها الثقيلةِ على أزقتها المتعبة. الأسابيعُ التي تلتْ نشرَ مدونةِ غفران السريةِ، وما تلاها من إغلاقٍ للموقعِ وإطلاقِ حملاتِ التشويهِ المُمَنْهَجَةِ، لم تُطفئْ لهيبَ الحقيقةِ في روحِ داليا ونرمين وخالد، بل زادتْهم إصراراً. تحوّلتْ المعركةُ من همسٍ في الظلالِ إلى صراعٍ مفتوحٍ، من بحثٍ عن قاتلٍ إلى حربٍ على سرديةٍ كاملةٍ. كانتْ داليا تجلسُ في شقتها بالمنصورِ، تُحدّقُ في شاشةِ حاسوبها المطفأةِ، لكنّ صورَ كلماتِ غفران الأخيرةِ، "أنا اختطفتُ من سردي"، كانتْ لا

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

تزالُ تُضيءُ عقلَها كنجومٍ بعيدةٍ في سماءٍ مُعتمةٍ.

كانتْ المجموعةُ السريةُ "غفران لا تزالُ هنا" تُشكلُ، بالنسبةِ لداليا، الملجأَ الوحيدَ، والفضاءَ الذي يُمكنُ فيهِ للحقيقةِ أن تتنفسَ. كانتْ تتواصلُ باستمرارٍ معَ خالدٍ، "مهندسِ الظلالِ"، الذي كانَ يُشرفُ على تأمينِ نسخٍ احتياطيةٍ من مدونةِ غفران، وعلى نشرِها عبرَ قنواتٍ بديلةٍ، تُصعبُ على الرقابةِ إخمادَها. لكنّ داليا ونرمين أدركتا أنّ النضالَ الرقميَّ وحدهُ لا يكفي. فالحقيقةُ، لكي تُصبحَ ذاتَ صدىً حقيقيٍّ في عالمٍ ماديٍّ، تحتاجُ إلى دليلٍ ماديٍّ لا يُمكنُ دحضهُ. وهذاَ الدليلُ كانَ كامناً في جسدِ غفران نفسه وأن الدعوات التي أطلقها بعضُ النشطاء في فترة مبكرة، حول ضرورة تشريح الجثة صحيحة جداً.

"لا بُدَّ أن تُشرّحَ الجثةُ." قالتْ نرمين لداليا في مكالمةٍ هاتفيةٍ مشفّرةٍ في تطبيق وايبر، صوتُها يحملُ نبرةً من التصميمِ لا تخلو من اليأسِ. "كلُّ الأدلةِ التي جمعناها، من مدونةِ غفران، ومن شهادةِ أبي خالدٍ وأمِّ حسنٍ، ومن تحليلِ الدكتورِ نبيل، تُشيرُ إلى جريمةِ قتلٍ متعمدةٍ. لكنّ كلَّ هذاَ سيبقى مجردَ تكهناتٍ ما لم يفتحِ الجسدُ ليُخبرَ حقيقتَهُ."

كانَ طلبُ تشريحِ الجثةِ بمثابةِ عبورٍ لخطٍّ أحمرَ في المجتمعِ العراقيِّ. تُنظرُ إلى التشريحِ غالباً على أنهُ انتهاكٌ لحرمةِ الميتِ، ويتعارضُ معَ بعضِ التفسيراتِ الدينيةِ التي تُشدّدُ على سرعةِ الدفنِ وعدمِ المساسِ بالجسدِ. لكنّ داليا ونرمين كانتا تُدركانِ أن هذاَ الخطَّ الأحمرَ هوَ نفسه الخطُّ الذي يُحكمُ بهِ التسترُ على جرائمِ الشرفِ، وعلى فسادٍ أكبرَ.

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

تواصلتْ نرمين معَ مجيدِ الأحمدِ، المحامي الحقوقيِّ المعروفِ بشجاعتهِ ومهنيتهِ في قضايا حقوقِ الإنسانِ. كانَ مجيدُ رجلاً في الخمسينياتِ من عمرهِ، شعرهُ رماديٌّ، ونظارتهُ تُخبّئُ عينينِ حادتينِ تُشِعّانِ بذكاءٍ لا يُضاهى. كانَ قد تابعَ قضيةَ غفران باهتمامٍ، واقتنعَ بأنّ هناكَ مؤامرةً حقيقيةً تُحاكُ حولَ وفاتها. "الطلبُ الرسميُّ بالتشريحِ هوَ الخطوةُ الوحيدةُ الآنَ." قالَ مجيدُ الأحمدِ في لقاءٍ جمعهُ بداليا ونرمين في مقهى الشابندر في شارع المتنبي. "لكنّ هذاَ الطلبَ سيُواجَهُ بالرفضِ من العائلةِ، وخاصةً من زيادٍ. علينا أن نكونَ مستعدينَ لذلكَ، وأن نُجهزَ حججنا القانونيةَ والدينيةَ لمواجهةِ هذاَ الرفضِ."

صاغَ مجيدُ الأحمدِ الطلبَ الرسميَّ بالتشريحِ، مُستنداً إلى الموادِ القانونيةِ التي تُجيزُ التشريحَ في حالاتِ الوفاةِ المشبوهةِ، وإلى الأدلةِ التي جمعتها داليا ونرمين: تقريرُ الدكتورِ نبيل، مدونةُ غفران، وشهاداتُ الجيرانِ، والفيديو لزيادٍ وهوَ يشتري الحبلَ. كانَ الطلبُ مُفصّلاً، لا يتركُ مجالاً للشكّ في وجودِ شبهةٍ جنائيةٍ قويةٍ.

عندما وصلَ الطلبُ إلى عائلةِ غفران، كانَ زيادُ هوَ المتحدثَ الرسميَّ. لم يكنْ الأمرُ مجردَ رفضٍ، بل كانَ إعلانَ حربٍ. "كيفَ لهم أن يُهينوا عائلتنا بهذاَ الشكلِ؟" صرخَ زيادُ في وجهِ من نقلَ إليهِ الطلبَ. "هل يريدونَ أن يُنبشوا قبرَ أختي؟ أن يُشوهوا سمعتها أكثرَ؟ هذاَ حرامٌ شرعاً! هذاَ عيبٌ لا ترتضيه الأعراق العشائريُّة! لنْ نسمحَ بذلكَ أبداً! ماتتْ غفرانُ، ويجبُ أن تُتركَ بسلامٍ!"

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

كانَ زيادُ يُدركُ أن فتحَ قبرِ غفران يعني فتحَ قبرِ أسرارهِ هوَ، وقبرَ شبكةِ الفسادِ التي يتورطُ فيها معَ العمارتلي. كانتْ عيناهُ تُشِعّانِ بخوفٍ مُتخفٍّ تحتَ قناعِ الغضبِ المصطنعِ. استخدمَ الدينَ والعاداتِ كدروعٍ واقيةٍ لِجريمتهِ. كانتْ أمُّ غفران، التي كانتْ لا تزالُ غارقةً في حزنها، تُعربُ عن ترددٍ خفيفٍ. "ابنتي... المسكينةُ... هل ستبقى تُعاني حتى بعدَ موتها؟" همستْ لنفسها، لكنّ صوتَ زياد كانَ أقوى من أيِّ صوتٍ آخرَ. "الصمتُ هوَ الحلُّ يا أمّي! الصمتُ هوَ ما يُبقي على شرفِنا! هم يريدونَ الفضيحةَ!"

سجّلتْ نرمين، خفية وبطريقتها الخاصةِ، ردَّ فعلِ زياد ورفضَ العائلةِ، مُركّزةً على لغتهِ التي تُجرمُ الضحيةَ وتُبرّرُ التسترَ. أدركتْ أن هذهِ اللقطاتِ ستُشكّلُ جزءاً مهماً من سرديةِ المواجهةِ القادمةِ.

مع نشر معلومات جديدة وملفات صوت زياد، بدأَ الرأيُ العامُّ ينقسمُ. بعضُهم أيّدَ العائلةَ، مُعتبرينَ التشريحَ انتهاكاً دينياً واجتماعياً. "الفتنةُ تُريدُ أن تُنبشَ القبورَ!" صرخَ الشيخُ عبد المهدي في خطبةٍ جديدةٍ، مُكرّراً اتهاماتهِ ضدّ "دعاةِ الفتنةِ" الذينَ "يُضللونَ الناسَ بباطلِ أقوالهم". لكنّ آخرينَ، تأثروا بمدونةِ غفران وبحملةِ #من_قتل_غفران؟، بدأوا في التشكيكِ في هذاَ الرفضِ القاطعِ، مُشيرينَ إلى أنّ "من يخافُ من التشريحِ، يخافُ من الحقيقةِ". كانتْ مطرقةُ الطلبِ قد صدمتْ، وارتفعتْ لِتُواجِهَ حائطَ الرفضِ، لكنّ الشقوقَ بدأتْ تظهرُ في هذاَ الحائطِ، وتُنبئُ بانهيارٍ وشيكٍ.

* * *

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

لم تكنْ المعركةُ ضدّ التسترِ مجردَ صراعٍ على الحقائقِ الماديةِ، بل كانتْ حرباً على التأويلِ، على من يملكُ الحقَّ في تفسيرِ الدينِ والعرفِ. فإذا كانَ زيادُ يُحاولُ إغلاقَ بابِ الحقيقةِ بحجةِ الدينِ، فلا بُدَّ من فتحِ بابٍ آخرَ، بابٍ يُثبتُ أن الدينَ نفسهَ يُطالبُ بالعدالةِ والبحثِ عن الحقيقةِ، حتى لو كانَ الثمنُ تشريحَ جسدٍ ميتٍ.

عبرَ شبكةِ الشيخِ الدكتورِ كريمِ، التي كانتْ تتسعُ معَ كلِّ يومٍ، وعبرَ جهودِ خالدٍ الذي كانَ يُجيدُ فنَّ البحثِ عن "الأصواتِ المستنيرةِ" في الظلامِ، توصلتْ داليا ونرمين إلى الدكتورةِ زهرة الاسترابادي، طبيبةٍ شرعيةٍ شابةٍ، لكنها ذاتُ خبرةٍ واسعةٍ، تُدرّسُ في جامعةِ بغداد، وتُعرفُ بجرأتها العلميةِ ووعيها الدينيِّ العميقِ. كانتْ الدكتورةُ زهرةُ تُشبهُ غفران في روحها المُتمردةِ، لكنها كانتْ قد اختارتْ ميداناً مختلفاً للقتالِ: ساحةَ العلمِ، ومرآةَ التشريحِ.

التقَتْ داليا ونرمين بالدكتورةِ زهرةَ في بيتها الهادئِ. كانتْ الدكتورةُ ترتدي حجاباً أسودَ أنيقاً، لكنّ ملامحَ وجهها كانتْ تُشِعّ بذكاءٍ وثقةٍ. "تابعتُ قضيةَ غفران باهتمامٍ بالغٍ،" قالتْ الدكتورةُ زهرةُ بصوتٍ رصينٍ، وهيَ تُحدّقُ في أعينِ داليا ونرمين. "إنها ليستْ مجردَ قضيةٍ فرديةٍ، بل هيَ مرآةٌ تُعكسُ فيها أوجاعُ مجتمعٍ كاملٍ، وكيفَ يتمُّ التلاعبُ بالدينِ والعاداتِ لتبريرِ الظلمِ والتسترِ على الجرائمِ."

ثمّ بدأتْ الدكتورةُ زهرةُ في شرحِ وجهةِ نظرها، العلميةِ والشرعيةِ، التي كانتْ كصفعةٍ قويةٍ على حججِ زياد والشيخِ عبد المهدي. "في الطبِّ الشرعيِّ وفي حالاتِ الانتحارِ،

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

يُعتبرُ الجسدُ وثيقةً جنائيةً. إنهُ الشاهدُ الوحيدُ الذي لا يكذبُ. وعندما يكونُ هناكَ شكٌّ في سببِ الوفاةِ، أو مؤشراتٌ قويةٌ لوجودِ جريمةٍ، فإنّ التشريحَ يُصبحُ واجباً علمياً وقانونياً. بل أقولُ أكثرَ من ذلكَ: إنهُ واجبٌ شرعيٌّ وإنسانيٌّ. فكيفَ يُمكنُ تحقيقُ العدلِ، الذي هوَ أحدُ أهمِّ مقاصدِ الشريعةِ الإسلاميةِ، إذا أغلقنا البابَ أمامَ الوسيلةِ الوحيدةِ لكشفِ الحقيقةِ؟"

استشهدتْ الدكتورةُ زهرةُ بآياتٍ قرآنيةٍ وأحاديثَ نبويةٍ تُشدّدُ على أهميةِ العدلِ والإنصافِ، وعلى ضرورةِ التحقيقِ في الجرائمِ. "قالَ اللهُ تعالى في كتابهِ الكريم: وإذا حكمتم بينَ الناسِ أن تحكموا بالعدلِ. وكيفَ يُمكنُنا أن نحكمَ بالعدلِ إذا لم نبحثْ عن الحقيقةِ؟ إنّ التسترَ على جريمةٍ، بحجةِ حفظِ الشرفِ أو الخوفِ من الفضيحةِ، هوَ خيانةٌ للعدلِ، وخيانةٌ لروحِ الضحيةِ، وخيانةٌ للدينِ نفسه. إنّ الإسلامَ دينُ العدالةِ. والعدلُ يُطالبُنا بفتحِ الجسدِ ليُخبرنا حقيقتَهُ، لا أن ندفنَهُ بصمتٍ ونحنُ نعلمُ أن هناكَ شكوكاً قويةً."

أشارتْ الدكتورةُ زهرةُ إلى أنّ بعضَ الفقهاءِ المعاصرينَ قد أفتوا بجوازِ التشريحِ، بل بوجوبهِ، في حالاتِ الشبهةِ الجنائيةِ، وذلكَ لأنّ حفظَ النفسِ وكشفَ الجريمةِ أسمى من مجردِ تجنبِ المساسِ بالجسدِ. "القولُ إنّ التشريحَ انتهاكٌ لحرمةِ الميتِ هوَ قولٌ صحيحٌ في السياقِ الطبيعيِّ للوفاةِ. لكنْ في حالاتِ الشبهةِ الجنائيةِ، تُصبحُ حرمةُ كشفِ الحقيقةِ وتحقيقِ العدالةِ أسمى من حرمةِ الجسدِ المؤقتةِ. فالجسدُ قد يموتُ، لكنّ العدلَ يجبُ أن يبقى حياً. بل إنّ جسدَ الميتِ يصبحُ أمانةً في أعناقِنا، أمانةً تُطالبُ بكشفِ الحقيقةِ، تُطالبُ بأن تُروى قصتُهُ كاملةً."

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

تحدثتْ الدكتورةُ زهرةُ عن تجاربها الخاصةِ في الطبِّ الشرعيِّ، وعن حالاتٍ لنساءٍ قُتلنَ ثمّ لُفقّتْ عنهن قصص الانتحارِ، وكيفَ أن التشريحَ كشفَ الحقيقةَ وأنصفَ الضحايا. "كم من جريمةٍ لو دُفنتْ بصمتٍ، لظلتْ روحُ الضحيةِ تُصارعُ في الظلامِ؟ إنّ كلَّ جريمةٍ لا تُكشفُ، هيَ تشجيعٌ لجرائمَ أخرى. وغفرانُ، وكلُّ غفران، تستحقُّ أن تُروى قصتُها الحقيقيةُ، لا أن تُدفنَ تحتَ ركامِ الكذبِ والتسترِ."

كانتْ كلماتُ الدكتورةِ زهرةَ كبلسمٍ شفاءٍ لروحِ داليا، وكضوءٍ يُضيءُ لها الطريقَ. أدركتْ أن لديها الآنَ إضافة جديدة حول السندَ الشرعيَّ والعلميَّ لِمواجهةِ حججِ زياد والشيخِ عبد المهدي ومن يؤيدهما. كانتْ نرمين تُسجلُ كلَّ كلمةٍ، تُخططُ لكيفيةِ استخدامِ هذهِ الحججِ في حملتها الإعلاميةِ القادمةِ. تحوّلتْ الدكتورةُ زهرةُ، بصوتها الهادئِ لكنه الصارمِ، إلى حليفٍ استراتيجيٍّ، إلى نافذةٍ جديدةٍ تُفتحُ في جدرانِ الصمتِ التي حاولَ التسترُ أن يُحيطَ بها قضيةَ غفران. كانَ الرأيُ العامُّ قد انقسمَ، لكنّ صوتَ العدالةِ، المدعومَ بالعلمِ والدينِ، بدأَ يكتسبُ قوةً جديدةً، قوةً تُهددُ بانهيارِ كلِّ الأقنعةِ الزائفةِ.

* * *

في عالمٍ تُبنى فيهِ الحقيقةُ على أكتافِ الأكاذيبِ، يُصبحُ كلُّ اعترافٍ، مهما كانَ صغيراً، تحريكاً يهزُّ أركانَ اليقينِ الزائفِ. بعدَ الحملةِ الرقميةِ الشرسةِ، وبعدَ أن أُطلقتْ مدونةُ غفران السريةُ، وتصريحاتُ الدكتورةِ زهرة الاستربادي التي منحتْ التشريحَ شرعيةً دينيةً وعلميةً، بدأتْ الجدرانُ التي

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

بناها زيادُ وإعلام وأجهزة ميليشيا العمارتلي تُظهرُ تصدعات خطيرةً. لم يعدْ بإمكانِ الصمتِ أن يُحافظَ على نفسه، ولم يعدْ بإمكانِ الأكاذيبِ أن تُخفي وجهَ الحقيقةِ.

خالدٌ وفريقُهُ في مجموعةِ "غفران لا تزالُ هنا" يُراقبونَ الساحةَ الرقميةَ والشارعَ البغداديَّ عن كثبٍ. الضغطُ كانَ يتزايدُ على الشرطةِ والمؤسساتِ الرسميةِ. بعض وسائلُ الإعلامِ الدوليةُ، بدأتْ تُشيرُ إلى القضيةِ، تُثيرُ تساؤلاتٍ عن حقوقِ الإنسانِ وجرائم الانتحار المتزايدة في العراقِ. لم يعدْ بإمكانِ القوى المتنفذةِ أن تُدفنَ القضيةَ تحتَ ركامِ الإهمالِ.

في صباحٍ باردٍ، بينما كانتْ داليا تُتابعُ الأخبارَ على شاشةِ هاتفها، تلقّتْ مكالمةً من مجيدِ الأحمدِ، المحامي الحقوقيّ. كانَ صوتهُ يحملُ نبرةً من الصدمةِ والانتصارِ في آنٍ واحدٍ. "هناكَ خبرٌ عاجلٌ يا داليا! اعترفتْ الشرطةُ!"

لم تستطعْ داليا أن تُصدّقَ أذنيها. "اعترفتْ بماذا يا أستاذ؟"

"اعترفتْ بأن التقريرَ الأوليَّ عن وفاةِ غفران كُتبَ بناءً على أقوالِ زياد فقط! وأنّ الطبيبَ الشرعيَّ الذي وقّعَ عليهِ... لم يرَ الجثةَ أبداً!" كانتْ كلماتُ مجيدِ الأحمدِ كصاعقةٍ تضربُ روحَ داليا. تأكدتْ أسوأُ كوابيسها. لم يكنْ الأمرُ مجردَ تواطؤٍ، بل كانَ جريمةً كاملةً، تلاعباً بالعدالةِ، خيانةً للضميرِ المهنيّ.

سرعانَ ما انتشرَ الخبرُ. أُجبرتْ مديريةُ شرطةِ الرصافةِ، تحتَ ضغطٍ هائلٍ من وزارةِ الداخليةِ، التي كانتْ تتلقى ضغوطاً كبيرة، علَى إصدارِ بيانٍ رسميٍّ مُقتضبٍ. البيانُ، الذي نُشرَ على صفحتها الرسميةِ، كانَ يُقرُّ بوجودِ "قصورٍ

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

إداريٍّ" في التحقيقِ الأوليِّ، ويُعلنُ أن تقريرَ الطبيبِ الشرعيِّ لم يُبنَ على "معاينةٍ مباشرةٍ للجثةِ"، بل على "التقاريرِ الأوليةِ والمعلوماتِ المقدّمةِ من ذوي المتوفاةِ". البيانُ مُصاغٌ بذكاءٍ ليُخففَ من وقعِ الكارثةِ، ويُلقي باللومِ على "إجراءاتٍ روتينيةٍ خاطئةٍ"، لكنّ المعنى كانَ واضحاً كضوءِ الشمسِ: الشرطةُ كذبتْ، والطبيبُ الشرعيُّ تواطأَ، وزيادُهوَ مهندسَ كلِّ هذاَ التزييفِ.

هذاَ الاعترافُ هوَ الضربةَ القاضيةَ التي قصمتْ ظهرَ روايةِ الانتحارِ. تحوّلتْ الشكوكُ إلى حقائقَ دامغةٍ. أثبتتْ الشرطةُ بنفسها أنّها كانتْ جزءاً من مؤامرةِ التسترِ. داليا ونرمين تُتابعانِ الأخبارَ بذهولٍ، دموعُ الغضبِ والفرحةِ تمتزجُ على وجوههما. "فعلناها يا نرمين!" قالتْ داليا، صوتُها يختنقُ بالبكاءِ. "فضحناهم! اعترفوا بكذبهم!"

يُراقبُ زيادُ المشهدَ من بعيدٍ. كلماتُ الاعترافِ تنزلُ عليهِ كالصاعقةِ. شعرَ بأنّ الأرضَ تميدُ من تحتِ قدميهِ. "خانوني!" صرخَ بغضبٍ، وهوَ يُحاولُ الاتصالَ بالعمارتلي، لكنّ هاتفهُ كانَ لا يُجيبُ. أدركَ أن العمارتلي قد تخلّى عنهُ، وأنّ شبكةَ الولاء التي بناها كانتْ على وشكِ الانهيارِ. الخوفُ تملكهُ بالكاملِ، خوفٌ أعمقُ من أيِّ شعورٍ بالذنبِ. أصبحَ وجهُهُ مكشوفاً للعالمِ أجمعَ.

سرعانَ ما انطلقتْ موجةٌ جديدةٌ من الغضبِ في الأثيرِ الرقميِّ. خالدٌ، بخبرتهِ، كانَ يُضخُّ الخبرَ في كلِّ قنواتِ المجموعةِ، يُرفقُهُ بصورِ البيانِ الرسميِّ للشرطةِ، وبتحليلٍ مُفصّلٍ لكلماتِ البيانِ التي تُشيرُ بوضوحٍ إلى التسترِ. "هذاَ

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

دليلٌ لا يُمكنُ دحضهُ!" كتبَ خالدٌ في رسالةٍ عاجلةٍ للمجموعةِ. "الشرطةُ تعترفُ بكذبها! الطبيبُ الشرعيُّ لم يرَ الجثةَ! غفرانُ مُحقّة! قُتلتْ! وحاولوا دفنَ الحقيقةِ معها!"

ظهر الصدى مُدوّياً. بدأ الآلاف من العراقيين في العراقِ وخارجهِ في ربطِ الخيوطِ. مدونةُ غفران، فيديو الحبلِ، تحليلُ الدكتورِ نبيل، تصريحاتُ الدكتورةِ زهرةَ، وأخيراً، اعترافُ الشرطةِ الصادمُ. انهارتْ كلُّ الأقنعةِ. أُصيبتْ سرديةُ "الانتحارِ" بضربةٍ قاتلةٍ لا يُمكنُ التعافي منها. بغدادُ تتنفسُ الصدمةَ والغضبَ، لكنها، أيضاً، تتنفسُ أملاً جديداً في تحقيقِ العدالةِ، أملاً تُشعلُهُ روحُ غفران التي قررتْ أن تُصارعَ من تحتِ الترابِ، لتُعلنَ حقيقتها المسروقةَ.

* * *

لم يكنْ اعترافُ الشرطةِ نهايةَ المطافِ، بل بدايةَ حركة. تحوّلتْ قضيةُ غفران من مجردِ بحثٍ عن قاتلٍ إلى صراعٍ وجوديٍّ على من يملكُ الحقَّ في روايةِ القصصِ، وعلى من يُقرّرُ مصيرَ الأجسادِ بعدَ موتها. ففي مجتمعٍ ينُظرُ فيهِ إلى جسدِ المرأةِ على أنهُ ملكيةٌ عائليةٌ تُدفنُ أسرارُها معهُ، كانَ لا بُدَّ من صرخةٍ مُدوّيةٍ تُعيدُ الاعتبارَ للجسدِ كوثيقةٍ جنائيةٍ، كشاهدٍ أبديٍّ لا يكذبُ، وكرموزٍ لمقاومةٍ تُعلنُ ميلادَها.

داليا ونرمين، برفقةِ خالدٍ ومجموعةِ "غفران لا تزالُ هنا"، أعدّتا حملةً رقميةً جديدةً. هذهِ الحملةُ تُشبهُ قنبلةً فكريةً، تهدفُ إلى تفجيرِ المفاهيمِ التقليديةِ عن الجسدِ والشرفِ والموتِ. "#الجسد_ليس_ملكا_للعائلة...

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

#الجسد_وثيقة_جنائية" هذان الهاشتاغان الجديدان، يجب أن بساهما في تغيّيرِ وجهَ النقاشِ.

انطلقتْ الحملةُ في الأثيرِ الرقميّ، مُرفقةً بصورٍ لغفران وهيَ تبتسمُ، وبعض صورها في ساحة التحرير أيام انتفاضة تشرين، ولقطاتٍ من مدونتها، ومقاطعَ من تصريحاتِ الدكتورةِ زهرة الاسترابادي والشيخِ الدكتورِ كريمِ، التي تُؤكدُ شرعيةَ التشريحِ وضرورةَ كشفِ الحقيقةِ. أشرفَ خالدٌ على توزيعِ هذهِ الموادِّ عبرَ شبكةٍ واسعةٍ من القنواتِ البديلةِ، مُستغلاً كلَّ ثغرةٍ في جدرانِ الرقابةِ.

"في بلادٍ يُدفنُ فيها الجسدُ قبلَ أن تُروى قصتُهُ، ويُكفّنُ بالعارِ قبلَ أن تُكشفَ حقيقتُهُ، نُعلنُ اليومَ أنّ "#الجسد_ليس_ملكا_للعائلةِ لتُخفي بهِ أسرارها، وليسَ ملكاً للمجتمعِ ليُلقيَ عليهِ أحكامهُ الجاهزةَ. #الجسد_وثيقة_جنائية، أمانةٌ في أعناقِنا، تُطالبُ بأن تُفتحَ صفحاتُها ليُقرأَ ما كُتبَ عليها من حقائقَ. إنّ كلَّ بصمةِ جرحٍ، كلَّ أثرِ كدمةٍ، كلَّ علامةِ خنقٍ، هوَ حرفٌ في كتابِ العدالةِ، لا بُدَّ أن يُقرأَ، ولا بُدَّ أن يُفهمَ، ولا بُدَّ أن تُنصفَ الضحيةَ."

منشوراتُ داليا، التي تُكتبُ باسمٍ مستعارٍ، تُعبرُ عن روحِ المواجهة. "إنّ التسترَ على جريمةِ قتلٍ باسمِ الشرفِ أو العرف أو الدين هوَ أكبرُ عارٍ يُمكنُ أن يلحقَ بأيّ عائلةٍ أو أيّ عشيرةٍ أو مجتمع. إنّ الشرفَ الحقيقيَّ هوَ في العدلِ، في كشفِ الحقيقةِ، في احترامِ كرامةِ الإنسانِ، حياً كانَ أو ميتاً."

بدأتْ الفتياتُ والشبانُ من مجموعةِ "غفران لا تزالُ هنا" في تنظيمِ فعالياتٍ رمزيةٍ في شوارعِ بغدادَ. لم تكنْ

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

مظاهراتٍ صاخبةً، بل كانتْ وقفاتٍ صامتةً، يحملونَ فيها لافتاتٍ تُظهرُ صورةَ غفران وهيَ تبتسمُ، وهاشتاغ "#الجسد_وثيقة_جنائية ". كانوا يقفونُ في أماكنَ عامةٍ، في مداخل الجامعاتِ، في الأسواقِ، يُلقونَ صمتَهم على ضجيجِ المدينةِ، صمتاً أثقلَ من أيِّ صراخٍ، صمتاً يُجبرُ العيونَ على التساؤلِ، ويُجبرُ الآذانَ على الاستماعِ. هذهِ الوقفاتُ، رغمَ بساطتها، تُحدثُ صدىً عميقاً في الشارعِ البغداديّ، تُثيرُ النقاشَ، وتُزعجُ القوى التي اعتادتْ على السيطرةِ الكاملةِ على السرديةِ.

الشيخُ عبد المهدي فقدَ تأثيرَهُ إلى حدٍّ كبيرٍ بعدَ اعترافِ الشرطةِ. لكنّهُ لم يستسلمْ. في خطبةٍ جديدةٍ، هاجمَ الحملةَ بشراسةٍ، وصفها بأنها "دعوةٌ للفسوقِ والفجورِ"، و"محاولةٌ لتدميرِ القيمِ الدينيةِ والأخلاقيةِ للمجتمعِ العراقيِّ". "يريدونَ أن يُحوّلوا الميتَ إلى مسرحٍ للفضيحةِ! يريدونَ أن يمزّقوا نسيجَ عائلاتنا! هذاَ هوَ تحريضٌ خطيرٌ لا يُمكنُ السكوتُ عليهِ!" لكنّ كلماته هذهِ المرةَ لم تعدْ تحملُ نفسَ القوةِ والتأثيرِ. اهتزّ عرشُ سلطتهِ الدينيةِ بفضلِ صوتِ الحقيقةِ الذي أطلقتهُ غفرانُ.

على النقيضِ من ذلكَ، نشرَ الشيخُ الدكتورُ كريمُ مقالاً جديداً بعنوانِ "الجسدُ أمانةُ اللهِ وشاهدُ العدلِ". في هذاَ المقالِ، دعمَ الحملةَ بقوةٍ، مُستدلاً بالقرآنِ والسنةِ على أنّ الجسدَ هوَ أمانةٌ من اللهِ، وشاهدٌ على حياتهِ ومماتهِ. "إنّ كشفَ الحقيقةِ وإقامةَ العدلِ هوَ من أسمى واجباتِ المسلمِ. وليسَ في التشريحِ، في حالاتِ الشبهةِ الجنائيةِ، ما يُخالفُ

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

الدينَ، بل هوَ يُوافقهُ ويُخدمُ مقاصدهُ الساميةَ في حفظِ النفسِ وصيانةِ الحقوقِ. فدعوا الجسدَ يُخبرنا قصتَهُ. دعوا الميتَ ينطقُ حقيقتَهُ."

شعرتْ داليا بتحوّلٍ عميقٍ في داخلها. لم تعدْ الفتاةَ الحزينةَ على صديقتها، بل أصبحتْ رمزاً للمواجهةِ، صوتاً لجيلٍ كاملٍ يرفضُ الصمتَ. تُدركُ حجمَ المسؤوليةِ التي تقعُ على عاتقها، وأنّ الطريقَ لا يزالُ طويلاً ومحفوفاً بالمخاطرِ. لكنّ روحَ غفران كانتْ تُحلّقُ فوقَها، تمدّها بالقوةِ. أصبحَ جسدُ غفران نفسه، الذي أرادوا أن يُدفنوهُ بصمتٍ، هوَ السلاحَ الأقوى في حربِ الحقيقةِ.

في تلكَ الأيامِ، لا ترى عيونُ داليا في جسدِ غفران مجردَ هيكلٍ عظميّ أو ذكرى أليمةٍ. بل ترى فيهِ أرشيفاً كاملاً من الحقيقةِ، كتاباً مفتوحاً لم يُقرأْ بعدُ بالكاملِ، شاهداً صامتاً يُصرخُ في وجهِ الظلمِ. تُدركُ أن جسدَ غفران لم يعدْ ملكاً لعائلةٍ تُحاولُ التسترَ عليهِ، بل أصبحَ ملكاً للعدالةِ، ملكاً لجيلٍ كاملٍ يُطالبُ بأن تُروى القصصُ بصدقٍ، وأن تُكشفَ الحقائقُ مهما بلغتْ بشاعتُها. إنّ التشريحَ لم يكنْ مجردَ إجراءٍ طبيّ، بل إعلانُ حربٍ على الصمتِ، إعلانَ ثورةٍ على السرديةِ المسروقةِ، إعلانَ ميلادٍ جديدٍ للحقيقةِ التي كانتْ تُشنقُ مرتين.

هل تُطمسُ الحقيقةُ بمجردِ غلقِ بابٍ أو بحجةِ دينٍ مُتأوّلٍ، أم أنّ الجسدَ نفسه، حينَ تُسرقُ روايتُهُ، يتحولُ إلى وثيقةٍ جنائيةٍ لا تُحرقُها نيرانُ الكذبِ، ولا تُخْرِسُها كلماتُ التشويهِ، بل تُعلّقُ على سقفِ الزمنِ، تنتظرُ من يجرؤُ على

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

رفعِ عينيهِ، ليرى ما لم يجرؤْ أحدٌ على رؤيتهِ في مرآةِ الأيامِ الغابرةِ، ومرآةِ الروحِ المُسَرَّقة؟

* * *

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

منشورات «ألف باء AlfYaa»

10

هل تُباعُ العدالةُ في سوقِ النخاسة ِكعبيدٍ تُرصفُ أثقالُها على أكتافِ الضعفاء، كما بيعت النساء الإيزيديات في أسواق نخاسة جحيم "داعش"؟ أم أنّ لكلِّ حقيقةٍ ثمناً باهظاً لا يدفعهُ إلا من يجرؤُ على كسرِ قناعِ الزيفِ الذي تلبسُهُ وجوهُ السلطة؟ في بغدادَ، حيثُ يُبنى كلُّ قصرٍ على أساسٍ من رمالِ الظلمِ، تُصبحُ الحقيقةُ نفسها قناعاً زجاجياً، يظهرُ من بعيدٍ كأنهُ انعكاسٌ للعدلِ، لكنّهُ يُخفي وراءَهُ وجهاً بشعاً لِعَدالةٍ تُطاردُ الضحيةَ مرتينِ.

* * *

بعدَ أن صدحتْ صفحاتُ الشرطةِ باعترافٍ مُقتضبٍ، كأنّها تُقرُّ بوجودِ قصورٍ إداريٍّ في التحقيقِ الأوليِّ لوفاةِ غفران، وتُعلنُ أنّ تقريرَ الطبيبِ الشرعيِّ لم يُبنَ على "معاينةٍ مباشرةٍ للجثةِ"، بل على "التقاريرِ الأوليةِ والمعلوماتِ المقدّمةِ من ذوي المتوفاةِ"، اهتزّتْ بغدادُ اهتزازاً عميقاً. لم يكنْ هذاَ مجردَ بيانٍ إداريٍّ، بل كانَ شرارةً أيقظتْ ضميراً جمعياً مُتعباً. تحوّلتْ قضيةُ غفران من همسٍ في الظلالِ إلى صرخةٍ مُدوّيةٍ في فضاءِ الأثيرِ، تُطالبُ بالعدالةِ، وتُفضحُ منظومةَ تسترٍ امتدتْ أذرعها إلى كلِّ زاويةٍ من زوايا المدينةِ. شعرتْ داليا بانتصارٍ مرٍّ، كأنّها تُشاهدُ قناعاً زجاجياً قد بدأَ يتصدّعُ، يُكشفُ جزءاً من وجهِ القبحِ الكامنِ خلفَهُ.

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

نشر خالدٌ، بمهاراتهِ التقنيةِ، بيانَ الشرطةِ المُقتضبَ عبرَ شبكةٍ واسعةٍ من القنواتِ البديلةِ، وأرفقهُ بتحليلٍ مُفصّلٍ لكلماتِ البيانِ التي تُشيرُ بوضوحٍ إلى التسترِ والتواطؤِ. "الشرطةُ تعترفُ بكذبها! الطبيبُ الشرعيُّ لم يرَ الجثةَ! غفرانُ مُحقّة! قُتلتْ! وحاولوا دفنَ الحقيقةِ معها!" كانتْ هذهِ هيَ الكلماتُ التي تُدوّي في فضاءِ العالم الرقمي، تُشعلُ نيرانَ الغضبِ في قلوبِ الملايينِ. بدأتْ المجموعاتُ الطلابيةُ، والناشطونَ المدنيونَ، وحتى بعضُ الشخصياتِ العامةِ التي كانتْ تترددُ في البدايةِ، في رفعِ أصواتها، تُطالبُ بتحقيقٍ فوريٍّ وشفافٍ، وتُصرُّ على ضرورةِ تشريحِ الجثةِ لكشفِ الحقيقةِ.

الضغطُ العامُ هائل. لم يعدْ بإمكانِ السلطاتِ أن تتجاهلَ صرخاتِ الحقيقةِ، خاصةً معَ تزايدِ اهتمامِ وسائلِ الإعلامِ الدوليةِ بالقضيةِ، التي تُسلّطُ الضوءَ على انتهاكاتِ حقوقِ الإنسانِ في العراقِ. شعرتْ نرمين، الصحفيةُ، ببعضِ الأملِ يتسللُ إلى روحها المتعبةِ. "نجحنا في كسرِ جدارِ الصمتِ الأولِ، يا داليا." قالتْ لنرمين في مكالمةٍ هاتفيةٍ على تطبيق مشفَّر. "لكنّ المعركةَ الحقيقيةَ لم تبدأْ بعدُ. القوى التي تحاولُ التسترَ على جريمةِ غفران لنْ تستسلمَ بسهولةٍ. ستحاولُ أن تُرمّمَ قناعَها، أن تُعيدَ صياغةَ الحقيقةِ بما يُناسبُ مصالحها."

ولم تُخيبْ السلطاتُ الظنونَ. فبعدَ أيامٍ قليلةٍ من اعترافِ الشرطةِ، وفي محاولةٍ لامتصاصِ الغضبِ والضغطِ الشعبيّين ، أعلنتْ وزارةُ الداخليةِ عن "فتحِ تحقيقٍ رسميٍّ عاجلٍ وشاملٍ" في قضيةِ وفاةِ غفران. كانَ البيانُ الرسميُّ هذهِ

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

المرةَ أكثرَ تفصيلاً، مُحمّلاً بكلماتٍ تُوحي بالجديةِ والالتزامِ بالعدالةِ، مُشيراً إلى "محاسبةِ المقصرينَ" و"كشفِ الحقائقِ مهما كانتْ".

في الأيامِ الأولى للتحقيقِ، بدتْ الأمورُ وكأنّها تتجهُ نحو العدالةِ. تمّ استدعاءُ بعضِ أفرادِ الشرطةِ الذينَ كانوا مسؤولينَ عن التحقيقِ الأوليِّ، والطبيبِ الشرعيِّ الذي وقّعَ على التقريرِ دونَ معاينةٍ، وحتى زياد تمّ استدعاؤهُ لـ"التحقيقِ" معه. شعرتْ داليا ببارقةِ أملٍ. "ربما... ربما تكونُ هذهِ هيَ البدايةَ الحقيقيةَ لكشفِ الحقيقةِ." همستْ لنفسها. كانتْ تتخيلُ أنّ العدالةَ قد انتصرتْ أخيراً، وأنّ قناعَ الزيفِ سينكسرُ إلى الأبدِ. لكنّ روحها، التي خبرتْ مرارةَ هذاَ الوطنِ، كانتْ تُحذّرها بأنّ لكلِّ مسرحيةٍ فصلاً أخيراً، قد لا يكونُ سعيداً.

كانَ مجيدُ الأحمدِ، المحامي الحقوقيُّ، أكثرَ حذراً. "هذهِ مجردُ مسرحيةٍ، يا داليا." قالَ لها في مكالمةٍ هاتفيةٍ. "إنهم يُحاولونَ امتصاصَ الغضبِ. إنهم يُحاولونَ أن يضعوا قناعاً زجاجياً جديداً على وجهِ الحقيقةِ. سيصوغون سرداً آخراً، سيعثرونَ على كبشِ فداءٍ، سيُلقونَ باللومِ على شخصٍ ضعيفٍ، ثمّ يُغلقونَ الملفَ وكأنّ شيئاً لم يكنْ. هذاَ هوَ دأبُ الأنظمةِ الفاسدةِ." كلماتُ مجيدِ الأحمدِ كجرعةٍ من الواقعيةِ المُرّةِ، تُذكّرُ داليا بأنّ القوى المتسلطة لا تُستسلمُ بسهولةٍ، وأنّ العدالةَ الحقيقيةَ أغلى من أن تُهدى في مجتمعٍ كهذا. بدأتْ داليا تُدركُ أن الأملَ في هذاَ الوطنِ غالباً ما يكونُ مُلبّساً بأوهامٍ، وأنّ اليقينَ الحقيقيَّ لا يُمكنُ العثورُ عليهِ إلا

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

خلفَ طبقاتٍ سميكةٍ من الكذبِ والتزييفِ، خلفَ كلِّ قناعٍ زجاجيٍّ يُعلّقُ في سماءِ العدالةِ المزيفةِ.

* * *

لم يمضِ وقتٌ طويلٌ حتى بدأتْ ملامحُ "التحقيقِ الرسميِّ" تتكشفُ، لتُؤكدَ مخاوفَ مجيدِ الأحمدِ. السرعةُ التي تسيرُ بها الإجراءاتُ مثيرةً للشكِّ، والتركيزُ على تفاصيلَ جانبيةٍ، وتجاهلُ الأدلةِ الأساسيةِ، يُوحي بأنّ هناكَ سيناريو مُعدّاً مُسبقاً. لم يُستدعَ العمارتلي، ولا زياد تمّ التحقيقُ معهُ بجديةٍ حولَ فيديو شراءِ الحبلِ أو دوره في شبكةِ الفسادِ التي كانتْ غفرانُ تُخطّطُ لكشفها، والتي عُرفت بعد نشر مدونة غفران. كلُّ ذلكَ يُشيرُ إلى أنّ هذاَ التحقيقَ ليسَ سوى مسرحيةٍ، تُقدمُ لامتصاصِ الغضبِ، وتُبرّرُ التسترَ.

بدا الأداءُ مُتقناً. فبعدَ أيامٍ قليلةٍ من بدايةِ التحقيقِ، أُعلنَ عن "اعتقالِ المشتبه بهِ الرئيسيِّ" في قضيةِ وفاةِ غفران. يُذاعُ الخبرُ في النشراتِ الإخباريةِ، تُروّجُ لهُ القنواتُ الموالية بحماسٍ مُفرطٍ، كأنهُ انتصارٌ عظيمٌ للعدالةِ. لكنّ داليا، وهيَ تُتابعُ تفاصيلَ الخبرِ، شعرتْ بقشعريرةٍ باردةٍ تسري في جسدها. لم يكنِ المشتبهُ بهِ زيادَ، ولا العمارتلي. كانَ "أحمدُ" الشابُ، بائعُ القهوةِ المتجولِ في الحيِّ وفي شارع الكفاح، والذي كانَ معروفاً ببعضِ تصرفاتهِ الطائشةِ وعلاقاتهِ العابرةِ. كانَ "أحمدُ" شاباً وكبشَ فداءٍ مثالياً؛ ضعيفٌ، مُهمّشٌ، ولا يملكُ أيَّ سندٍ يُمكنُهُ أن يُدافعَ بهِ عن نفسهِ. وُضعَ القناعُ الزجاجيُّ على وجهٍ هشٍّ، ليُخفي الوجوهَ الحقيقيةَ لِجلاّدي غفران.

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

أُعلنَ عن "اعترافِ أحمدَ الشابِ الكاملِ" بدفع الضحية للقيام بالانتحار، "الانتحارُ المزعوم" الذي لُفّتْ بهِ غفرانُ. أُذيعتْ تفاصيلُ "اعترافهِ" في مؤتمرٍ صحفيٍّ مُنظّمٍ بعنايةٍ فائقةٍ، حضرهُ مسؤولونَ أمنيونَ، وممثلو وسائلِ إعلامٍ موالية. أحمدُ الشابُ يظهرُ على الشاشةِ بوجهٍ شاحبٍ، وعينينِ مُتعبتينِ، يُردّدُ الكلماتِ التي لُقّنتْ إليهِ، كأنهُ دميةٌ تُحرّكها أيادٍ خفيةٌ.

كانَ الاعترافُ مُفصّلاً. زعمَ أحمدُ الشابُ أنّهُ كانَ على "علاقةٍ غراميةٍ سريةٍ" معَ غفران، وأنّها كانتْ تُهدّدهُ بـ"كشفِ العلاقةِ" إذا لم يتزوجْها. وأضافَ أنّهُ كانَ يُهدّدُها بدورهِ بـ"نشرِ صورٍ خاصةٍ" لها إذا لم تتراجعْ عن طلبها. ثمّ، في سيناريو مُحبوكٍ بعنايةٍ، ادّعى أحمدُ أن غفران، تحتَ وطأةِ هذاَ التهديدِ، و"فشلِ العلاقةِ"، أبلغته أنها ستنتحر إذا لم يُصْلح خطأه، وقد أقدمتْ على الانتحارِ شنقاً في غرفتها. كانتْ كلُّ كلمةٍ في هذاَ الاعترافِ كذبةً، لكنّها كانتْ كذبةً مُريحةً للكثيرينَ.

كانَ هذاَ الاعترافُ مُريحاً لزيادٍ، وللعمارتلي، وللشبكةِ بأكملها. رُبطَ "السببَ" بـ"الفشلِ العاطفيّ"، و"تهديدِ الشرفِ"، وهيَ الرواياتُ التي تُناسبُ السرديةَ الاجتماعيةَ والدينيةَ التقليديةَ، وتُبرّرُ التسترَ على الجرائمِ الحقيقيةِ. لم يُشِرِ الاعترافُ إلى أيِّ تفاصيلَ عن تفوّقِ غفران الأكاديميّ، ولا عن بحثها السريّ، ولا عن شبكةِ الفسادِ، ولا حتى عن فيديو الحبلِ الأبيضِ الذي اشتراهُ زيادُ. كلُّ هذاَ طُمسَ تحتَ ركامِ هذاَ القناعِ الزجاجيِّ الذي وُضعَ على وجهِ أحمدَ الشابِ.

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

شعرتْ داليا بالغثيانِ وهيَ تُتابعُ الأخبارَ. "كيفَ لهم أن يُزوّروا الحقيقةَ بهذاَ الشكلِ الوقحِ؟" همستْ لنفسها، عيناها تلمعانِ بالغضبِ المُقدّسِ. تعرفُ أن غفران لم تكنْ لتقيمَ علاقةً عاطفيةً معَ شخصٍ مثلِ أحمدَ الشابِ، وأن روحها أسمى من أن تُهدّدَ بمجردِ صورٍ. حاربتْ غفرانُ هذهِ السرديات السطحيةَ، وهذهِ الأوهامَ عن الشرفِ، حتى قبلَ وفاتها. أدركتْ داليا أنّ هذاَ الاعترافَ ليسَ سوى جريمةٍ ثانيةٍ، تُرتكبُ باسمِ العدالةِ، وتُسفكُ فيها كرامةُ غفران مرةً أخرى، وبُرّئَ الجناةُ الحقيقيونَ، وأُغلقَ القناعُ الزجاجيُّ على وجهِ الحقيقةِ، مُعلناً نهايةَ مُزيفةً لقصةٍ لم تبدأْ بعدُ بالصدقِ.

* * *

لم تمرَّ ساعةٌ واحدةٌ على إعلانِ "اعترافِ أحمدَ الشابِ" المُفبركِ، حتى تحوّلَ العالم الرقميُّ، ووسائلُ الإعلامِ التقليديةِ، إلى ساحةِ حربٍ ضروسٍ. القناعُ الزجاجيُّ الجديد الذي وضعهُ النظامُ على وجهِ الحقيقةِ قد بدأَ يُعطِي مفعولَهُ، يُوهمُ البعضَ باليقينِ، بينما يُثيرُ في البعضِ الآخرِ غضباً وتساؤلاً لا ينطفئُ.

الشيخُ عبد المهدي هوَ أول من سارعَ إلى مباركةِ هذاَ "الانتصارِ للعدلِ". ظهرَ في لقاءٍ متلفزٍ على إحدى القنواتِ الموالية، وجههُ مُتوهّجٌ بانتصارٍ مصطنعٍ، وصوتهُ يصدحُ بلهجةٍ قاطعةٍ لا تقبلُ الجدلَ. "الحمدُ للهِ الذي أظهرَ الحقَّ وأزهقَ الباطلَ! هذهِ قضيةً تُثيرُ الفتنةَ في مجتمعنا الطاهرِ، قضيةً حاولَ بها دعاةُ الباطلِ، وأبواقُ الفسادِ، أن يُشكّكوا في قيمنا، وأن يُطعنوا في شرفِ أبناء مجتمعنا الملتزمين

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

وعشائرنا. لكنّ اللهَ سبحانَهُ وتعالى أظهرَ الحقيقةَ، وكشفَ المؤامرةَ!"

كانَ الشيخُ عبد المهدي يتحدثُ بحماسٍ مُفرطٍ، يلوّحُ بيديهِ، وكأنهُ يُوجّهُ ضرباتٍ غيرَ مرئيةٍ لخصومهِ. "هذهِ الفتاةُ، رحمها اللهُ، ضحية هواها، وضحية ابتعادها عن الفطرةِ السليمةِ. جرّها الشيطانُ إلى مهاوي الردى، وإلى إقامةِ علاقاتٍ مُحرّمةٍ، فأُنْهِتْ حياتُها بهذهِ الطريقةِ المأساويةِ. واليومَ، أُعلنَ الحقُّ، وكُشفَ الفاسقُ، وتأكدَ أنّها ضحية انحرافها، لا ضحيةَ أيِّ مؤامرةٍ! فليَخْسأْ كلُّ من حاولَ أن يُبرّئَ المنتحرَ، وليُعْلمْ كلُّ من حاولَ أن يُشوهَ سمعةَ أبناءِ العشائرِ الشرفاءِ!"

جاء هذاَ الخطابُ بمثابةِ بلسمٍ مريحٍ للكثيرينَ في المجتمعِ الذينَ يُفضّلونَ الرواياتِ البسيطةَ التي تُلقي باللومِ على الفردِ والضحيةِ، وتُعفي المجتمعَ من مسؤوليةِ البحثِ عن الأسبابِ الجذريةِ للظلمِ والفسادِ. تلكَ الكلماتُ تُغلقُ البابَ على أيِّ تساؤلٍ، وتُرسّخُ قناعاتٍ مسبقةً، تُحوّلُ غفران من ضحيةٍ إلى مُذنبةٍ، وتُحوّلُ النظامَ الفاسدَ إلى حارسٍ للشرفِ والعدالةِ. حُبسَ الرأيُ العامُّ في بركةِ اليقينِ المُتعفّنةِ، ليشربُ من مياهها الآسنةً المُشبعةً بالأوهامِ، بينما تُعلّقُ الحقيقةُ في قناعٍ زجاجيٍّ مُزيفٍ.

لكنّ لكلِّ قناعٍ زجاجيٍّ شقوقَهُ، ولكلِّ بركةِ يقينٍ نهراً من التساؤلاتِ يتدفقُ من تحتها. ففي الوقتِ الذي أعلن فيهِ الشيخُ عبد المهدي انتصارَهُ، تابع كل من داليا، ونرمين، وخالد، ورفاقهم في مجموعةِ "غفران لا تزالُ هنا"، المشهدَ بقرفٍ

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

متزايدٍ. أدركوا أنّ هذاَ ليسَ انتصاراً للعدالةِ، بل هوَ جريمةٌ ثانيةٌ تُرتكبُ في وضحِ النهارِ. في هذا الجو المشحون بالفبركة تم لإصدار حكم سجن أحمدُ الشابُ، بعد محاكمة مستعجلة، ليصبح ضحية جديدة.

كانَ الشيخُ الدكتورُ كريمُ، بصفتهِ أستاذَ الفقهِ في جامعةِ بغدادَ، هوَ الصوتَ الوحيدَ الذي يجرؤُ على مواجهةِ هذاَ الطوفانِ من الأكاذيبِ. لم يظهرْ في لقاءٍ تلفزيونيٍّ، فقد كانَ يُدركُ أن صوتهُ لنْ يُسمعَ في ضجيجِ القنواتِ الموالية، بل سيكتبُ مقالاً عميقاً، تُنشرُهُ مجموعةُ "غفران لا تزالُ هنا"، وتُوزّعهُ عبرَ شبكاتها البديلةِ، وتُرسلهُ إلى الصحفِ المستقلةِ والناشطينَ.

في مقالٍ بعنوانِ "جريمةٌ ثانيةٌ باسمِ العدالةِ: متى نُصبحُ شهوداً على الحقيقةِ لا شركاءَ في التسترِ؟" كتبَ الشيخُ الدكتورُ كريمُ بنبرةٍ رصينةٍ وهادئةٍ، لكنها اخترقتْ جدرانَ الصمتِ كالسهمِ. لم يُهاجمْ السلطة أو الشيخَ عبد المهدي بالاسمِ، لكنّهُ فكّكَ خطابهُ، كلمةً كلمةً، وحجةً حجةً، وكشفَ عن تناقضاتهِ المنطقيةِ والشرعيةِ.

"إنّ دينَنا هوَ دينُ العدلِ والإنصافِ. وقد أمرنا اللهُ تعالى بـ'التبيُّنِ' قبلَ إصدارِ الأحكامِ. فكيفَ لنا أن نقبلَ باعترافٍ مُفبركٍ، يُلقي باللومِ على الضحيةِ، ويُبرّئُ الجناةَ الحقيقيينَ؟ كيفَ لنا أن نُصدّقَ روايةً تُناقضُ كلَّ الأدلةِ التي ظهرتْ؟ من هوَ هذاَ الشابُ الضعيفُ الذي قُدّمَ ككبشِ فداءٍ؟ هل يُمكنُ لشابٍ متجولٍ أن يُهدّدَ فتاةً متفوقةً بذكائها ووعيها؟ هل يُمكنُ للعلاقاتِ العاطفيةِ أن تُصبحَ هيَ السببَ الوحيدَ، بينما هناكَ

منشورات «ألف باء AlfYaa»

وثائق سريةٌ، وتهديداتٌ حقيقيةٌ، وشبكاتُ فسادٍ كانتْ غفرانُ على وشكِ كشفها؟"

استمرَّ الشيخُ الدكتورُ كريمُ في تفكيكِ الروايةِ الرسميةِ، مُشيراً إلى أن "العجلةَ في إصدارِ الحكمِ، والتركيزَ على شخصٍ ضعيفٍ ومُهمّشٍ، وتجاهلَ الأدلةِ الأساسيةِ، كلُّ ذلكَ يُشيرُ إلى أنّنا أمامَ مسرحيةٍ قضائيةٍ تُهدفُ إلى إرضاءِ الرأيِ العامِّ وخدمةِ مصالحِ جهاتٍ نافذةٍ، لا إلى تحقيقِ العدلِ الحقيقيِّ. إنّ عدمَ تشريحِ الجثةِ، ورفضَ التحقيقِ في هويةِ من اشترى الحبلَ، وتجاهلَ مدونةِ غفران السريةِ التي تُنبأتْ بمصيرها، كلُّ ذلكَ ليسَ إهمالاً، بل هوَ تواطؤٌ مُتَعَمَّدٌ."

"إنّ القولَ بأنّ 'العدالةَ قد تحققتْ' هوَ القولُ الذي يُضيفُ جريمةً ثانيةً إلى الجريمةِ الأولى. جريمةَ قتلِ الحقيقةِ، وجريمةَ وأدِ الضميرِ الجمعيِّ. إنّ الضحيةَ، غفران، لم تُقتلْ مرةً واحدةً، بل تُقتلُ مرتينِ: مرةً جسدياً، ومرةً بإعدامِ سرديتها، وبتشويهِ سمعتها، وبإلقاءِ اللومِ عليها. هذاَ ليسَ عدلاً، يا سادة، هذاَ هوَ الظلمُ بعينهِ، مُلبّساً قناعَ العدالةِ الزجاجيَّ."

كلماتُ الشيخِ الدكتورِ كريمِ كضوءٍ كاشفٍ، تُزيحُ الستارَ عن القناعِ الزجاجيِّ الذي وُضعَ على وجهِ الحقيقةِ. أظهرَ أن هذاَ القناعَ، رغمَ بريقِهِ الخادعِ، يُخفي وراءَهُ وجهاً بشعاً لِعدالةٍ تُباعُ وتُشترى، ولِفسادٍ يتغلغلُ في كلِّ مفاصلِ الدولةِ. وزَعّتْ داليا مقالَ الشيخِ الدكتورِ كريمِ بحماسٍ، تُرفقُهُ بكلماتها، وتُشيرُ إلى أنّ هذاَ هوَ أحد الأصوات الحقيقيَّة للعدالةِ، لا تلكَ الأقنعةَ الزجاجيةَ التي يُحاولونَ فرضَها.

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

تحوّلَ الأثيرُ الرقميُّ إلى ساحةِ صراعٍ حقيقيةٍ، بينَ بركةِ اليقينِ المُتعفّنةِ ونهرِ التساؤلِ الجاري، وكلُّ كلمةٍ كانتْ رصاصةً تُطلقُ في هذهِ الحربِ غيرِ المرئيةِ.

* * *

تراجعتْ داليا إلى خلفِ شاشةِ حاسوبها المضيئةِ، تُحدّقُ في كلماتها، وفي كلماتِ الشيخِ الدكتورِ كريمِ، وفي وجوهِ من تفاعلوا معَ المقالِ. الوعيُّ يتسعُ، والشكوكُ تتأجّجُ، لكنّ روحها صارت مثقّلةً بحقيقةٍ مُرّةٍ: سُجّلتْ العدالةُ في هذهِ القضيةِ، لكنها لم تتحققْ. أُغلقَ القناعُ الزجاجيُّ على وجهِ أحمدَ الشابِ، وسُجنَ، وبُرّئَ القتلةُ الحقيقيونَ. تلكَ هيَ اللحظةُ التي أدركتْ فيها داليا حجمَ تغلغلِ الفسادِ في جوانب هذاَ النظامِ القضائيِّ، وكيفَ أن العدالةَ لم تعدْ غايةً، بل أصبحتْ سلعةً تُباعُ وتُشترى، تُصنعُ وتُفبركُ، لتُناسبَ مصالحَ القوى المتنفذةِ.

تذكّرتْ داليا كلماتِ الدكتورةِ إيمانَ التي حذرتْها من شبكةِ الفسادِ التي سعتْ غفرانُ لكشفها. "إنها منظومةٌ كاملةٌ، يا داليا. لا تشملُ الناطقين باسم العشائرَ فحسب، بل تمتدُّ إلى أجهزةِ شرطةِ وقضاءِ وحتى مؤسساتِ دينيةِ." هذهِ الكلماتُ تترددُ في رأسها، تُؤكدُ لها أنّ ما حدثَ لأحمدَ الشابِ لم يكنْ صدفةً، بل كانَ جزءاً من خطةٍ مُحكمةٍ، تُديرُها أيادٍ خفيةٌ، تُحرّكُ الدمى في مسرحيةِ العدالةِ المزيفةِ.

زيادُ، الأخُ الذي قتلَ أختهُ، اختفى من الواجهةِ. لم يُقدمْ للمحاكمةِ، ولم تُوجهْ إليهِ تهمةٌ. حتى العمارتلي، زعيمُ

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

الميليشيا، الذي كانَ العقلَ المدبّرَ وراءَ التهديداتِ والضغوطِ، لم يُذكرْ اسمُهُ في أيّ تحقيقٍ. اختفيا في الظلالِ، تاركينَ خلفَهما قناعاً زجاجياً على وجهِ الحقيقةِ، وضحيةً مُزيفةً تئنُّ في السجنِ، وروحَ غفران تُصارعُ من تحتِ الترابِ.

شعرتْ داليا بمرارةٍ عميقةٍ. فُتحَ التحقيقُ، لكنه انتهى بنتائجَ مفبركةٍ. وُجدَ "كبشُ فداءٍ"، واعترفَ بـ"جريمةٍ" لم يرتكبها. وباركها الشيخُ عبد المهدي. وفضحها الشيخُ الدكتورُ كريمُ. لكنّ الحقيقةَ لم تُكشفْ بالكاملِ، والعدالةَ لم تُنصفْ. هذاَ هوَ وجهَ بغدادَ الحقيقيَّ، وجهَ مدينةٍ تُباعُ فيها الأرواحُ بثمنٍ بخسٍ، وتُشترى فيها الحقيقةُ ببعضِ الكلماتِ المزيفةِ.

تواصلتْ داليا معَ نرمين وخالدٍ ومجيدِ الأحمدِ. هناكَ إحباطٌ عميقٌ في أصواتهم، لكنْ لم يكنْ هناكَ استسلامٌ. "هذاَ ليسَ نهايةَ المطافِ، يا رفاقُ." قالَ مجيدُ الأحمدِ بصوتٍ مُتعبٍ. "خسرنا هذهِ المعركةَ في المحاكمِ، لكننا لم نخسرْ الحربَ على الحقيقةِ. الحقيقةُ لا تُسجنُ، ولا تُدفنُ، ولا تُشنقُ. بل هيَ تُحلقُ في السماء، وتُسجّلُ في الذاكرةِ الجماعيةِ."

أدركتْ داليا أنّ هذاَ القناعَ الزجاجيَّ الذي وُضعَ على وجهِ العدالةِ ليسَ ثابتاً. إنهُ هشٌّ، يُمكنُ أن يتصدّعَ معَ كلِّ صرخةٍ، معَ كلِّ كلمةٍ تُقالُ، معَ كلِّ صوتٍ يجرؤُ على تحدّي الظلمِ. هذهِ هيَ النهاية المفجعة لهذاَ الفصلِ، نهاية تُرسّخُ قناعةً مُرّةً بأنّ عدالةَ رسميةَ قد خانتْ غفران، وأنّ نظامَ قضائيَّ قد تحوّلَ إلى أداةٍ لخدمةِ الفسادِ.

لكنّها صارت أيضاً بدايةَ وعيٍ جديدٍ. وعيٍ بأنّ المعركةَ

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

الحقيقيةَ ليستْ في أروقةِ المحاكمِ فقط، بل في قلوبِ وعقولِ الناسِ، في قدرتهم على رفضِ الأكاذيبِ، وعلى التمسكِ بالحقيقةِ، مهما بلغتْ مرارتُها. روحُ غفران لا تزالُ تُحلّقُ في سماءِ بغدادَ، تُشيرُ إلى كلِّ قناعٍ زجاجيٍّ يُخفي وراءَهُ وجهَ الظلمِ. خانتْ العدالةُ غفران، لكنّ روحَ غفران لنْ تخونَ العدالةَ أبداً. أصبحَ هذاَ القناعُ الزجاجيُّ، ليسَ مجردَ غطاءٍ لجريمةٍ، بل رمزاً لمدينةٍ بأكملها، تُحاولُ أن تُخبئَ وجهَها الحقيقيَّ خلفَ ألفِ قناعٍ من الكذبِ، في انتظارِ من يجرؤُ على كسرِها، ليرى ما خلفَ السطحِ المزيفِ للحياةِ.

في شوارعِ بغدادَ المتربةِ، تُرى أشباحُ العدالةِ تتراقصُ في أروقةِ الظلامِ، قناعٌ زجاجيٌّ يُعلّقُ في سماءِ مدينةٍ اعتادتْ على دفنِ حقائقِها. فهل يكفي أن تُغلقَ محكمةٌ بابها، أو أن يُسجنَ ضعيفٌ ككبشِ فداءٍ، لكي تُسكتَ صرخاتُ الحقيقةِ؟ أم أنّ كلَّ كذبةٍ تُعلنُ انتصاراً، تُشعلُ لهيباً أعمقَ في قلوبِ من يرفضونَ الصمتَ، فتتحولُ المدينةُ بأكملها إلى مرآةٍ تدورُ، تُعيدُ عرضَ الفيلمِ الأخيرِ لروحٍ لم ترحلْ بعد، وتُطالبُ بكسرِ كلِّ الأقنعةِ، ليرى العالمُ وجهَ الحقيقةِ عارياً، ووجهَ الظلمِ الذي لا يرحمُ؟

* * *

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

11

هل تُصبحُ الروحُ، حينَ تُطارَدُ في أروقةِ العدلِ المزيفِ، مجردَ صدىً يتلاشى في عالمٍ رقميٍّ مُحاصر؟ أم أن لكلِّ نبضةٍ في قلبٍ يرفضُ السقوطَ خيطاً خفياً، يُربطُ الماضي بالحاضرِ، ويُعلنُ للحقيقةِ أنها لا تُسجنُ، ولا تُدفنُ، بل تُحلّقُ في سماءٍ لا تعرفُ حدوداً، مُتصلةً بآلافِ الأرواحِ التي لم يُكتبْ لها أن تُروى قصصُها كاملة؟ في مدنٍ اعتادتْ على مواراةِ الأحلامِ تحتَ ركامِ الخوفِ، تُصبحُ كلُّ ذكرى، كلُّ كلمةٍ، كلُّ صورةٍ، حبلاً خفياً يمتدُّ من تحتِ الترابِ، ليُطاردَ الظالمينَ، ويُضيءَ الطريقَ لمن يجرؤُ على كسرِ قوانينِ الصمتِ.

* * *

في تلكَ الأيام التي وُئدتْ فيها العدالةُ تحتَ قناعٍ مُزيفٍ، وشُنقَ فيها ضميرُ مجتمعٍ على حبلٍ من الكذبِ، شعرتْ داليا ببرودةٍ قارسةٍ تتسللُ إلى روحها. لم يكنِ البردُ نابعاً من هواءِ بغدادَ بداية الشتاء، بل من مرارةِ الحقيقةِ التي تجمدتْ على أروقةِ المحاكمِ الفاسدةِ. سُجنَ أحمدُ الشابُ، كبشُ فداءٍ مُختارٌ بعنايةٍ، وأُغلقتْ الأبوابُ على قصتهِ المفبركةِ، وبرّئَ القتلةُ الحقيقيونَ. تلكَ هيَ اللحظة التي أدركتْ فيها داليا أنّ العدالةَ يمكن أن تتحول في هذاَ الوطنِ إلى كلمةٍ جوفاءَ، تُتداولُ على الألسنِ، وتُشوهُ في أروقةِ الظلامِ، لتخدمَ مصالحَ

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

من يملكونَ المالَ والسلطةَ.

جلستْ داليا في شقتها، تُحدّقُ في شاشةِ هاتفها التي كانتْ تُضيءُ وجهَها الشاحبَ. كلماتُ الشيخِ الدكتورِ كريمِ، "جريمةٌ ثانيةٌ باسمِ العدالةِ"، تُدوّي في رأسها كصدىً مُؤلمٍ، تُذكّرها بأنّ غفران لم تُقتلْ مرةً واحدةً، بل تُقتلُ كلَّ يومٍ، كلَّما رُوِّجَ لتلكَ الكذبةِ البشعةِ. صورُ أحمد الشاب، بوجهه الشاحبِ وعينيهِ المكسورتينِ، تترسخُ في ذاكرتها، تُخبرها بقسوةِ النظامِ الذي لا يرحمُ، والذي يُضحي بالضعفاءِ ليُبقيَ على أقوياءهِ.

كانَ فصلُ الشتاء قد بدأ يبسطَ عباءتهُ الثقيلةَ على بغدادَ، ليُغرقَ المدينةَ في كآبةٍ لا تليقُ بها. لكنّ داليا لم تشعرْ باليأسِ. بل شعرتْ بغضبٍ مُقدّسٍ يتأجّجُ في روحها، غضبٍ يُعطيها قوةً جديدةً. تُصرخُ روحُ غفران في داخلها، تُطالبُها بالمقاومةِ، تُطالبُها بألا تُسلمَ للسرديةِ المزيفةِ. "إذا سُجنَ الجسدُ، فلنْ تُسجنَ الحقيقةُ. وإذا ماتَ الصوتُ، فلنْ تموتَ الذاكرةُ." تلكَ هيَ العبارة التي بدأتْ تُشكلُ إيمانَها الجديدَ.

في تلكَ الليلةِ الباردةِ، بينما كانتْ أصواتُ المولداتِ تُخفي همسَ الأسرارِ، رنَّ هاتفُ داليا. مكالمةٌ مجهولةٌ، من رقمٍ لم يُسجّلْ في ذاكرةِ هاتفها. ترددتْ للحظةٍ، هل هوَ مجيدُ الأحمدِ؟ هل هوَ خالدٌ؟ أم هوَ أحدُ الأصدقاءِ من مجموعةِ "غفران لا تزالُ هنا"؟ أجابتْ، وكانَ قلبُها يخفقُ بشدةٍ، شعرتْ بأنّ هناكَ شيئاً عظيماً على وشكِ الحدوثِ.

الصوتُ في الطرفِ الآخرِ أجشّ، مُتكتّمٌ، كأنهُ يأتي من أعماقِ بئرٍ مظلمٍ. كلماتهُ مختصرة، حازمة، مُفعمةٌ بتهديدٍ لا

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

يُمكنُ تجاهلهُ. "العدالةُ أُغلقتْ ملفها. والبابُ أُحكمَ إغلاقهُ. من يفتحُ باباً مُغلقاً، يدخلُ في متاهاتٍ لا نهايةَ لها." توقفَ الصوتُ للحظةٍ، كأنهُ يُريدُ أن يُعطي كلماته الفرصةَ لِتُترسخَ في وعيِّ داليا. ثمّ تابعَ، بنبرةٍ باردةٍ كشفرةِ سكينٍ: "اللي بعد غفران... أنتِ."

سقطَ الهاتفُ من يدِ داليا. لم يكنْ مجردَ تهديدٍ، بل كانَ إعلاناً للحربِ، خيطاً جديداً يُضافُ إلى "الحبلِ الخفيِّ" الذي بدأَ يلتفُّ حولَ رقبتها. شعرتْ داليا بأنّ روحها قد جُمِّدَتْ. "اللي بعد غفران، أنتِ." تلكَ الكلماتُ تُدوّي في رأسها كصافراتِ إنذارٍ مُتكررةٍ. أدركتْ أنّها لم تكنْ تُقاتلُ شبحاً، بل تُقاتلُ قوىً حقيقيةً، قوىً لا تترددُ في استخدامِ العنفِ والقتلِ لإسكاتِ كلِّ صوتٍ يجرؤُ على كشفِ حقيقتهم.

لم يكنِ التهديدُ موجهاً لجسدها فحسب، بل لروحها أيضاً. يُريدُ أن يُخْرِسَ صوتَها، أن يمحوَ ذاكرتها، أن يُدفنَ حقيقتها معها، كما حاولوا فعلَ ذلكَ معَ غفران. لكنّ هذاَ التهديدَ، بدلاً من أن يُشلها بالخوفِ، أيقظَ فيها قوةً جديدةً. تذكرتْ كلماتِ غفران في مدونتها: "لا أخشى الموتَ، بل أخشى أن يُسرقَ صوتي، أن يُسرقَ سردي، أن تُسرقَ حقيقتي." تُدركُ داليا الآنَ أنّ واجبها الأسمى ليسَ حمايةَ جسدها، بل حمايةَ سرديةِ غفران، وحمايةَ ذاكرةِ جميعِ من ماتوا ظلماً. هذاَ التهديدُ هوَ الشرارة التي أشعلتْ في داليا عزماً لا يلينُ، عزماً سيُغيّرُ مسارَ حياتها إلى الأبدِ.

* * *

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

لم تُضِعْ داليا الوقتَ في اليأسِ. كانَ التهديدُ واضحاً كضوءِ الشمسِ في كبدِ السماءِ. "اللي بعد غفران، أنتِ." تلكَ الكلماتُ تُحفّرُ في ذاكرتها، تُذكّرها بضرورةِ التحركِ السريعِ. لم يكنْ هناكَ مجالٌ للخوفِ بعدَ الآنَ، بل هناكَ مجالٌ واحدٌ فقط: الحفاظُ على "الشبكة الخفيّة" التي تربطُ غفران بالعالمِ، الحفاظُ على أرشيفها الرقميِّ الذي يُشكّلُ روحَها وذاكرتها، وجعل قضيتها قضية حياتها، وعلى أرشفة جميع ما كُتب في هذه القضية.

اتصلتْ داليا بخالدٍ. كانَ صوتهُ مُتعباً، لكنّهُ على أهبةِ الاستعدادِ. "وصلَ التهديدُ، يا خالدُ. الآنَ، علينا أن نتحركَ بسرعةٍ. يجبُ أن نُهرّبَ كلَّ شيءٍ. أرشيفَ غفران الرقميَّ، كلَّ كلمةٍ كتبتها، كلَّ صورةٍ رسمتها، كلَّ بحثٍ أعدتهُ. كلَّ خيطٍ من هذاَ الحبلِ الخفيِّ يجبُ أن نُنقذهُ."

يُدركُ خالدٌ حجمَ المخاطرِ. يُدركُ أنّ القوى التي تُطارِدُ داليا هيَ نفسها القوى التي تُطارِدُ الحقيقةَ. "لا تقلقي يا داليا. سنفعلُ ذلكَ. سأجهّزُ كلَّ شيءٍ. لكنْ إلى أينَ؟ ومن سيستلمُه؟"

"إلى نرمين." أجابتْ داليا، وعيناها تلمعانِ بتصميمٍ. "نرمين هيَ الأملُ الوحيدُ. هيَ الوحيدةُ التي تملكُ المنبرَ، والقدرةَ على نشرهِ، والجرأةَ على مواجهةِ القوى المتسلطة. أُغلقتْ أبوابُ العدالةِ الرسميةِ، لكنّ أبوابَ الإعلامِ لا تزالُ مفتوحةً، حتى لو كانتْ أبواباً مُختطفةً." ثم لاحقا اتفقا على أن يتم توزيع نسخا منها بطرق متعددة ومع أشخاص آخرين.

بدأَ خالدٌ، بصفتهِ "مهندسَ الظلالِ" في المجموعةِ، في عمليةٍ معقدةٍ وتتطلبُ دقةً فائقةً. كانَ أرشيفُ غفران الرقميُّ

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

ليسَ مجردَ ملفاتٍ عاديةٍ. كانَ يضمُّ مدونتها السريةَ "ألف ليلى وليلى عراقية"، ورسوماتها الهندسيةَ لمشاريعِها المبتكرةِ، وملفاتِ بحثها الخاص ِعن "أشكال ودوافع العنف في تقارير الانتحار ورمزيته"، ومراسلاتها معَ باحثينَ وناشطينَ، وحتى بعضَ المقاطعِ الصوتيةِ التي سجلتها غفرانُ لنفسها وهيَ تُعلّقُ على قضايا الشرفِ والعدالةِ وصورها في مناسبات واعتصامات وفي ى انتفاضة تشرين. كانَ هذاَ الأرشيفُ هوَ "بصمةَ الروحِ المحجوبةِ" لغفران، هوَ كيانها الرقميُّ الذي يُمكنُهُ أن يُحركَ الجبالَ ويجب الحفاظ عليه من العبث أو الضياع.

استخدمَ خالدٌ تقنياتٍ متطورةً للتشفيرِ والضغطِ، لِيُحوّلَ الأرشيفَ إلى ملفٍ واحدٍ مُحكمِ الإغلاقِ، لا يُمكنُ اختراقُه إلا بمعرفة. أنشأ عدة حسابات على الجي ميل، ووزع نسخا من الإرشيف في هذه الحسابات، ووزع مفاتيح الوصول إلى هذه الحسابات على أعضاء المجموعة، بشكل فردي، ولا يعرف به الجميع. أدركَ أنّ هذاَ ليسَ مجردَ نقلِ بياناتٍ، بل كانَ نقلَ روحٍ، نقلَ ذاكرةٍ، نقلَ مستقبلٍ. "لنْ نسمحَ لهم بأن يُطفئوا هذهِ الشمعةَ يا داليا." قالَ خالدٌ، وصوتهُ يحملُ نبرةً من العهدِ الصامتِ.

في ذلكَ الوقتِ، كانتْ نرمين تُعاني من تبعاتِ كشفِ الحقيقةِ. أصبحتْ هدفاً لحملاتِ التشويهِ المُمَنْهَجَةِ من القنواتِ الموالية، التي وصفتْها بأنها "عميلةٌ خارجيةٌ" و"مُحرّضةٌ طائفيةٌ غير عربية". كانتْ تتلقى تهديداتٍ مباشرةً عبرَ وسائلِ التواصلِ الاجتماعيّ، بل وصلَ الأمرُ

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

إلى تهديداتٍ على حياتها. يرنُّ هاتفُها باستمرارٍ من أرقامٍ مجهولةٍ، ورسائلُ نصّيةٌ تُهدّدُها بـ"نهايةٍ قريبةٍ" إذا لم "تتراجعْ عن فتنتها". عينا نرمين تُحدّقانِ في الأرشيفِ الذي أرسلهُ خالدٌ إليها، تُدركُ حجمَ المسؤوليةِ التي تقعُ على عاتقها. "هذهِ ليستْ مجردَ ملفاتٍ،" همستْ لنفسها. "هذهِ روحُ غفران. هذهِ هيَ الحقيقةُ التي يجبُ أن تُقالَ، مهما كانتِ الأثمان."

كانَ تسليمُ الأرشيفِ لنرمين بمثابةِ نقطةِ تحوّلٍ أخرى. لم يعدْ الحبلُ الخفيُّ يلتفُّ حولَ عنقِ داليا وحدها، بل أصبحَ يلتفُّ حولَ عنقِ نرمين أيضاً. أصبحتا شريكتينِ في هذاَ المصيرِ المُحتمِ، شريكتينِ في حمايةِ بصمةِ روحٍ، وذاكرةِ حقيقةٍ، من أشباحِ النسيانِ. كانتْ هذهِ هيَ لحظةَ الولادةِ الجديدةِ للروحِ الرقميةِ لغفران، روحٍ ستتنفسُ في أثيرٍ لا يُمكنُ حصارهُ، وستُحلّقُ في سماءٍ لا تعرفُ حدوداً، مُتصلةً بآلافِ الأرواحِ التي لم يُكتبْ لها أن تُروى قصصُها كاملة.

* * *

قرارُ داليا بمغادرةِ بغدادَ صعبٌ، كأنّها تُقتلعُ من جذورِها. لم تكنْ مجردَ مدينةٍ، بل كانتْ تاريخاً، ذاكرةً، جزءاً من روحها. لكنّ التهديدَ المباشرَ، "اللي بعد غفران، أنتِ"، لم يتركْ لها خياراً. شعرتْ داليا بأنّها تُتركُ قطعةً من روحها في كلِّ زاويةٍ من شوارعِ بغدادَ المتربةِ، في كلِّ ركنٍ من شقتها، في كلِّ ذكرى من ذكرياتها معَ غفران. لكنّ النجاةَ لم تكنْ فرديةً، بل كانتْ نجاةَ سرديةٍ، نجاةَ ذاكرةٍ، نجاةَ حقيقةٍ.

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

في صباحٍ باكرٍ، قبلَ أن تشرقَ الشمسُ على بغدادَ، ودّعتْ داليا والدتها التي كانتْ غارقةً في صمتٍ أبديٍّ، تحملُ حزناً أثقلَ من أيِّ كلمةٍ. غادرتْ داليا شقتها بخطواتٍ ثابتةٍ، تحملُ حقيبةً صغيرةً، وروحاً مثقلةً بالأعباءِ. رحلت نحو وجهتها أربيلُ، مدينةَ الشمالِ التي أصبحتْ ملاذاً آمناً لِكلِّ من يُطارَدُ في بغدادَ. رحلتها إلى أربيل مُتعبةٌ، لكنّ كلَّ كيلومترٍ كانتْ تقطعُهُ، يشعرها بأنَّ الحبلَ الخفيَّ الذي يربطُها بغفران يزدادُ قوةً، وأنّ بصمةَ روحِ غفران تُصبحُ أكثرَ وضوحاً.

في أربيلَ، وبمساعدة من معارف نرمين، وسطَ مجموعة من أبراجها التي تُحاولُ أن تُنافسَ ناطحاتِ السحابِ في بلدان أخرى، شعرتْ داليا بنوعٍ آخرَ من الوحدةِ. تشعر بالحماية، لكنّها مُبعَدة عن ساحةِ المعركةِ الحقيقيةِ. تُراقبُ أخبارَ بغدادَ من بعدٍ، ترى كيفَ أن قناعَ العدالةِ الزجاجيَّ قد أُحكمَ إغلاقهُ، وكيفَ أن أحمدَ الشابُ قد دُفعَ ثمنَ جريمةٍ لم يرتكبها. لكنّ داليا لم تستسلمْ. تُدركُ أنّ الابتعادَ الجسديَّ لا يعني الابتعادَ الروحيَّ أو الرقميَّ.

في تلكَ الأثناءِ، وفي بغدادَ، كانتْ نرمين تُعاني من تبعاتِ قرارها بالتعاونِ معَ داليا وكشفِ الحقيقةِ. لم تمرَّ أيامٌ قليلةٌ على تسليمِ الأرشيفِ، حتى تلقتْ نرمين مكالمةً من مديرِ قناتها التلفزيونيةِ. صوتهُ المُتعب، المُتردد، وكلماته الواضحة: "آسفٌ يا نرمين. الضغوطُ أصبحتْ هائلةً. لا يُمكننا الاستمرارُ في تغطيةِ هذهِ القصةِ. القناةُ... تُهدّدُ من قبل جهات رسمية بالإغلاقِ. و... أنتِ... عليكِ أن تُغادري."

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

لم تُظهرْ نرمين أيَّ صدمةٍ. توقعتْ ذلكَ. تعرفُ أنّ الحقيقةَ في هذاَ البلدِ ثمنها باهظٌ. "فُصلتْ نرمين من قناتها التلفزيونيةِ". كانَ ذلكَ الخبرُ هوَ العنوانَ الصارخَ الذي أُعلنَ في دوائرِ الإعلامِ. سُحبتْ منها منصتها، لكن لم تُسحبْ منها روحها المقاتلة، ولم تُسحبْ منها ذاكرتها.

في لحظةٍ من التحديّ والصمودِ، قررتْ نرمين ألا تستسلمَ. "إذا أُغلقتْ أبوابُ القنواتِ التلفزيونيةِ الرسميةِ، فسنفتحُ أبواباً أخرى، أبواباً رقميةً لا تُمكنُ لأيّ قوةٍ أن تُغلقها." تلكَ هيَ الفكرةَ التي أشعلتْ في نرمين جذوةَ التمردِ. بمساعدةِ خالدٍ، وبدعمٍ من مجموعةِ "غفران لا تزالُ هنا"، أنشأتْ نرمين قناةً جديدةً على يوتيوب، ونشرت نسخة لمقتطفات سريعة على الانستغرام، التليغرام وكذلك على التيكتوك. لم تكنْ قناةً عاديةً، بل كانتْ منصةً للذاكرةِ، منبراً للحقيقةِ التي تُحاولُ أن تنبعثَ من تحتِ الرمادِ.

اسمُ القناةِ يُشبهُ صرخةً تُدوّي في الفضاءِ الرقمي: "أرشيفُ الموتِ". كلماتٌ بسيطةٌ لكنها تحملُ معانيَ عميقةً. لم يكنِ الاسمُ مُختاراً عشوائياً، بل كانَ يعكسُ فلسفةَ نرمين الجديدةَ: أن تحوّلَ الموتَ إلى مصدرٍ للحياةِ، والنسيانَ إلى ذاكرةٍ، والصمتَ إلى صرخةٍ مُدوّيةٍ. كانَ شعارُ القناةِ عبارةً عن شمعةٍ تضيءُ في الظلامِ، ومن خلفها أجنحةُ حمامةٍ سوداءَ تُحلّقُ في سماءٍ مُعتمةٍ.

بدأتْ قناةُ "أرشيفُ الموتِ" بنشرِ حلقاتٍ قصيرةٍ، تُحلّلُ فيها قضيةَ غفران من الألفِ إلى الياءِ، تُعرضُ فيها مدونةَ غفران السريةَ، وفيديو زياد وهوَ يشتري الحبلَ، وتحليلَ

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

الـدكتورِ نبيـل، وتصـريحاتِ الـدكتورةِ زهـرة الاسـترباديِ والشيخِ الدكتورِ كريـمِ، واعـترافَ الشـرطةِ المُرعـبَ. تُقـدمُ نرمين الحلقاتِ بنفسها، وجهُها شاحبٌ، لكنّ عينيها تلمعـانِ بتصميمٍ لا يلينُ، وصوتُها يحملُ نبرةً من الصـدقِ تخـترقُ القلوبَ.

أشرفَ خالدٌ على تأمينِ القناةِ، ويُروّجُ لها عبرَ شـبكاتٍ بديلةٍ، ويُرسلُ روابطَها إلى صحفيينَ وناشطينَ. لم تمرَّ أيامٌ قليلةٌ حتى بدأتْ قناةُ "أرشيفُ الموتِ" تكتسبُ متابعينَ بالآلاف . أصبحتْ ملاذاً لِكلِّ من يُريدُ أن يسمعَ الحقيقةَ، لِكلِّ من يُريدُ أن يرى وجهَ الظلمِ عارياً، لِكلِّ من يُريـدُ أن يتـذكرَ أرواحاً حاولتْ القوى الظلاميةُ دفنَها. هذا هوَ الـردّ القـويّ على التهديداتِ والإقصاءِ. أُغلقتْ شاشةٌ، لكـنّ ألـفَ شاشـةٍ أخرى قد انفتحتْ في فضاءٍ رقميٍّ لا يعرفُ حدوداً، تُعلنُ عن ميلادِ ذاكرةٍ جماعيةٍ لا يُمكنُ أن تُسجنَ أو تُدفنَ.

* * *

في أربيلَ، بعيداً عـن ضـجيجِ بغـدادَ وصـخبِها المُتعـبِ، تُحـاولُ داليـا أن تُلملـمَ شـتاتَ روحهـا. كـانتْ تُراقـبُ قنـاةَ "أرشيفُ الموتِ" الجديدةَ، ترى كيفَ أنّ نرمين قد تحوّلتْ إلى منبرٍ للعدالةِ، وكيفَ أنّ روحَ غفران لا تزالُ تتنفسُ في كلِّ حلقةٍ، في كلِّ كلمةٍ تُقالُ، وتشعرُ بفخرٍ عميقٍ بصديقتها، لكنّها تشعرُ أيضاً بوجعٍ خفيٍّ، وجعِ الابتعادِ عن قلبِ المعركةِ. فأربيلُ تُقدّمُ لها الأمانَ، لكنّها لم تُقدّمْ لها السلوى.

لا يـزالُ خالـدٌ يُبقيهـا عـلى اتصـالٍ مسـتمرٍّ بالمجموعـةِ

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

السريةِ "غفران لا تزالُ هنا". الرسائلُ تتدفقُ، تُخبرها بآخرِ المستجداتِ، بآخرِ التهديداتِ، بآخرِ الانتصاراتِ الصغيرةِ. لكنّ داليا تشعرُ بأنّ دورها قد تغيّرَ. لم تعدْ هيَ المحرّكةَ الأساسيةَ، بل أصبحتْ شاهدةً من بعيدٍ. تُدركُ أنّ هذاَ التغييرَ ضروريٌّ لحمايةِ نفسها، وللحفاظِ على بصمةِ غفران، لكنّها تتوقُ إلى أن تكونَ في قلبِ المعركةِ.

في مساءٍ من مساءاتِ أربيلَ الهادئةِ، بينما كانتْ أضواءُ المدينةِ تُضيءُ السهلَ الواسعَ، جلستْ داليا أمامَ شاشةِ حاسوبها. تُقلّبُ في الأرشيفِ الذي أرسلهُ إليها خالدٌ، أرشيفِ غفران الرقميّ. لم يكنْ مجردَ ملفاتٍ، بل روحاً، ذاكرةً، كوكباً كاملاً من الأفكارِ والأحلامِ. توقفتْ داليا عندَ ملفٍ لم تكنْ قد رأتهُ من قبل. اسمهُ: "سمر - 2019".

شكّل هذاَ الملفُ جزءاً من أبحاثِ غفران عن "أشكال ودوافع العنف في تقارير الانتحار ورمزيته". عندما فتحتْ داليا الملفَ، ارتجفَ جسدها كلهُ؛ سمرُ فتاةً شابةً من الموصلِ، طالبةً متفوقةً، "انتحرتْ" شنقاً في غرفتها عامَ 2019، بعدَ أن أُجبرتْ على الزواجِ من رجلٍ لا تُريده. جمعتْ غفرانُ قد تفاصيلَ قضيةِ سمرَ بدقةٍ، تُقارنُ بينَ الروايةِ الرسميةِ لِـ"الانتحارِ" وشهاداتِ أصدقائها وأقاربها التي تُشيرُ إلى "جريمةِ شرفٍ مُقنّعةٍ". تركتْ سمرُ رسالةً قصيرةً قبلَ وفاتها، مكتوبةً بخطٍّ مُرتعشٍ، تُخبرُ فيها بأنّها "لم تخترْ موتها، بل اختارهُ لها الآخرون".

شعرتْ داليا بقشعريرةٍ باردةٍ تسري في جسدها. لم تكنْ سمرُ مجردَ اسمٍ في ملفٍ، بل روحاً أخرى، تشبهُ غفران

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

تماماً. فتاةٌ ذكيةٌ، طموحةٌ، قُتلتْ أحلامُها قبلَ أن تُقتلَ هيَ، ثمّ لُفّتْ قصتُها برداءِ الانتحارِ ليحفظُ بهِ "شرفُ العائلةِ". تفاصيلُ قضيةِ سمرَ تُعيدُ نفسها، تُشبهُ قصةَ غفران بشكلٍ مُخيفٍ: تفوّقٌ دراسيٌّ، رفضٌ للزواجِ، غيابُ الأدلةِ الجنائيةِ، وتسترٌ من الشرطةِ والمجتمعِ. "الحبلُ الخفيُّ" الذي ربطَ غفران ودواليا، يمتدُّ الآنَ ليربطَ سمرَ أيضاً، وليُعلنَ عن وجودِ آلافِ الأرواحِ الأخرى التي لم تُروَ قصصُها بعدُ.

في تلكَ اللحظةِ، شعرتْ داليا بتحوّلٍ عميقٍ في داخلها. أدركتْ أنّ عملها لم يكنْ مجردَ تحقيقٍ في قضيةِ قتلٍ فرديةٍ. بل كانَ "إحياءً للذكرى". لم تكنْ تُقاتلُ من أجلِ غفران وحدها، بل من أجلِ كلِّ غفران، من أجلِ كلِّ سمرَ، من أجلِ كل ليلى، من أجلِ كلِّ روحٍ وُئدتْ، وكلِّ قصةٍ سُرقتْ. زرعتْ غفرانُ فيها هذهِ الفكرةَ، فكرةَ أن الذاكرةَ هيَ السلاحُ الوحيدُ ضدّ النسيانِ، وأنّ إحياءَ القصصِ الميتةِ هوَ أعظمُ شكلٍ من أشكالِ العدالةِ.

أغلقتْ داليا ملفَ سمرَ، لكنّ روحَ سمرَ وغفران لا تزالُ تُحلّقُ حولَها. أدركتْ أنّ هذاَ هوَ واجبها الجديدُ. ليسَ مجردَ صحفيةٍ أو طبيبةٍ، بل "حارسةُ الذاكرةِ"، "مهندسةُ الأرواحِ"، التي تُعيدُ بناءَ القصصِ المنسيةِ، وتُضيءُ المصابيحَ في عتمةِ النسيانِ. كانَ "الحبلُ الخفيُّ" الذي يربطُها بكلِّ هؤلاءِ الضحايا هوَ الآنَ حبلُ قوتها، حبلُ إيمانها، حبلُ عزيمتها. لم يكنْ تحقيقاً بالمعنى التقليديِّ، بل كانَ عملاً فنياً، أدبياً، إنسانياً، يُحوّلُ الموتَ إلى ذكرى حيةٍ، والظلمَ إلى صرخةٍ مُدوّيةٍ.

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

في سكونِ أربيلَ، وسطَ ضوءِ شاشتها الخافتِ، أدركتْ داليا أنّ الحربَ على الحقيقةِ لا نهايةَ لها. إنها حربٌ دائمةٌ، تنتقلُ من جسدٍ إلى جسدٍ، من ذاكرةٍ إلى ذاكرةٍ، من جيلٍ إلى جيلٍ. لكنها مستعدة لهذهِ الحربِ. مستعدة لأن تكونَ هيَ الحبلَ الخفيَّ الذي يربطُ الماضي بالحاضرِ، والذي يرفعُ صوتَ المظلومينَ عالياً في سماءٍ لا تعرفُ حدوداً. اختُطفتْ غفرانُ من سردها، لكنّ داليا هنا، لتعيدَ لها ولِكلِّ مثيلاتها، سرديتهنّ المسروقةَ، ولِتُشعلَ الأضواءَ في كهوفِ النسيانِ، مُعلنةً أن الذاكرةَ هيَ الحبلُ الخفيُّ الذي لا يُمكنُ لأيِّ قوةٍ أن تقطعَهُ.

في مدنٍ تُحاولُ أن تُدفنَ أرواحَ بناتها تحتَ ركامِ الصمتِ، هل يكفي أن تُغادرَ روحٌ، أو أن تُعزلَ بصمةٌ، لكي تُسكتَ صرخاتُ الحقيقة؟ أم أنّ لكلِّ حبلٍ خفيٍّ يمتدُّ من تحتِ الترابِ، القدرةَ على إحياءِ ألفِ ذكرى، وعلى ربطِ آلافِ الأرواحِ ببعضها، لتُصبحَ صرخةً جماعيةً لا تُخْرِسُها يدٌ بشريةٌ، تُعلنُ للعالمِ أجمعَ أن الحقيقةَ لا تُشنقُ، ولا تُدفنُ، بل تُعلّقُ في سماءِ الأثيرِ، تنتظرُ من يجرؤُ على رفعِ عينيهِ ليرى الحبلَ الخفيَّ الذي يربطُ بينَ كلِّ الضحايا، ويُعلنُ عن ميلادِ ذاكرةٍ لا تُمكنُ أن تُمحى؟

* * *

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

12

هل تُدفنُ روحٌ مرتين؟ مرةً بالترابِ، ومرةً بنسيانِ من قُتلَتْ، وبتواطؤٍ من صمتَ؟ في مدنٍ تُبنى على ركامِ الأحلامِ الموءودةِ، وتُسقَفُ بيوتُها بظلالِ الأكاذيبِ المتوارثةِ، يُصبحُ كلُّ عامٍ يمرُّ فصولاً جديدةً في مسرحيةٍ أزليةٍ، لا تتغيرُ فيها الأدوارُ، وإنْ تبدّلتِ الوجوهُ. رحيلُ غفران، وتشويهُ سرديتِها، بمثابةِ نقطةِ تحوّلٍ في نهرِ دجلة المتعبِ، الذي لم يكفَّ عن حملِ جثثِ الحقائقِ إلى بحرِ النسيانِ. لكنّ لكلِّ نهرٍ، وإنْ طالَ جريانهُ، صدىً يرتدُّ، ولكلِّ روحٍ، وإنْ قُتلتْ، بصمةٌ تُقاومُ المحوَ. فهل يكفي أن تُعلّقَ مرآةٌ في فضاءٍ محاصرٍ، لتُكشفَ وجوهٌ ظنّتْ أنها ستُبقى في الظلالِ إلى الأبدِ؟

في أروقةِ العدالةِ الباردةِ، حيثُ تُنطقُ الأحكامُ كأنّها آياتٌ مُنزلةٌ، كانَ أحمدُ الشابُ قد دفعَ ثمنَ جريمةٍ لم يرتكبها. أُلقيَ بهِ في غياهبِ السجنِ، ووجهُهُ المنهكُ يُكرّرُ صمتاً أكثرَ بشاعةً من أيِّ صراخٍ، بينما زياد والعمارتلي اختفيا في الظلالِ، كأنّهما لم يكونا سوى أشباحٍ عابرةٍ. أُغلقتْ الأبوابُ، ووُضعتْ الملفاتُ في الأدراجِ، وحُفرَ على قبرِ غفران كلمةُ "انتحار"، لتُصبحَ وصمةَ عارٍ تُلاحقُ روحَها حتى في مماتها.

* * *

مرّتْ سنةٌ. سنةٌ كاملةٌ على رحيلِ غفران. الخريفُ عادَ إلى بغدادَ بعباءتهِ الرماديةِ المثقلةِ بالندوبِ، تُذكّرُ المدينةَ بأنّ

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

الألمَ دوريٌ، والنسيانَ اختياريٌ. في حيِّ الفضلِ العتيقِ، تسيرُ الحياةُ على إيقاعٍ قديمٍ، ضجيجُ المولداتِ، صياحُ الباعةِ، ورائحةُ الشايِّ الثقيلِ. وتحتَ هذاَ السطحِ الهادئِ، هناكَ جراحٌ لم تندملْ، وأسرارٌ لم تُدفنْ، وأرواحٌ لم تستسلمْ.

داليا، في أربيلَ كانتْ تُشاهدُ كلَّ ذلكَ من بعدٍ. وإلتحقت بها نرمين، بعد زيادة التهديدات. أصبحتْ حارسةً للذاكرةِ، مُهندسةً للأرواحِ المنسيةِ. قناتُها على يوتيوب، "أرشيفُ الموتِ"، لم تعدْ مجردَ منصةٍ لنشرِ الحقيقةِ، بل أصبحتْ صرحاً رقمياً، يُوثّقُ قصصَ النساءَ اللواتي قُتلنَ ثمّ لُفّتْ قصصهنّ برداءِ "الانتحار" أو "الاختفاءِ الغامضِ". كانتْ تُنشرُ فيها حلقةً كلَّ أسبوعينِ، تُحلّلُ قضيةً جديدةً، تُقارنُ بينَ الرواياتِ الرسميةِ والحقائقِ المُغيّبةِ.صورُ سمر، الفتاةِ الموصليّةِ التي قُتلتْ في 2019، تُعرضُ في حلقاتٍ متتاليةٍ، تُشيرُ إلى أنّ قضيةَ غفران لم تكنْ حادثةً فرديةً، بل كانتْ جزءاً من "الحبلِ الخفيِّ" الذي يربطُ آلافَ الأرواحِ ببعضها، في شبكةٍ مُتشابكةٍ من الظلمِ والتسترِ.

نرمين، التي فُصلتْ من قناتها التلفزيونيةِ، تحوّلتْ إلى للصحافةِ الاستقصائيةِ الحرةِ. تُقدمُ حلقاتِ "أرشيفِ الموتِ" بنفسها، وجهُها شاحبٌ، لكنّ عينيها تلمعانِ بذكاءِ لا يلينُ، وصوتُها يحملُ نبرةً من الصدقِ تخترقُ القلوبَ. أصبحتْ منبراً لِكلِّ من يُريدُ أن يسمعَ الحقيقةَ، لِكلِّ من يُريدُ أن يرى وجهَ الظلمِ عارياً. لا تزالُ التهديداتُ تُلاحقها، لكنّها لم تُبالِ. "كلَّما حاولوا إسكاتَ صوتٍ، كلما تأكدتُ أنّ هناكَ حقيقةً أكبرَ تُحاولُ التسللَ." تلكَ هيَ فلسفتها.

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

خالدٌ، "مهندسُ الظلالِ"، لا يزالُ يُديرُ شبكةَ "غفران لا تزالُ هنا". أصبحتْ المجموعةُ أكبرَ وأكثرَ تنظيماً، تضمُّ آلافَ الأعضاءِ، من طلابٍ وناشطينَ وأساتذةٍ ومحامينَ وأطباءَ، كلهم يعملونَ في الظلالِ، يُوثّقونَ، يُحلّلونَ، يُقاوِمونَ. شكلتْ تلكَ المجموعةُ جيشاً رقمياً لا يُمكنُ حصارهُ، جيشاً يُؤمنُ بأنّ الكلمةَ هيَ السلاحُ الأقوى ضدّ القمعِ.

في المقابلِ، استمرَّ الشيخُ عبد المهدي في خطبهِ التي تدينُ غفران وكلَّ من يُحاولُ التشكيكَ في روايات الانتحارِ. يظهرُ في قنواتٍ مواليةٍ للعمارتلي، ويتحدثُ عبرَ قناتهِ على تيليغرام، ويُلقي خطبَ الجمعةِ في جامعٍ صغير في حيِّ الفضلِ، يُكرّرُ كلامهُ عن "الفتنةِ المتنقّلةِ"، و"الفشلِ في الدينِ والأخلاقِ"، و"الابتعادِ عن الفطرةِ السليمةِ" كأسبابٍ لموتِ غفران وغيرها. كلماته هذهِ المرة تحملُ نبرةً من الغضبِ واليأسِ المُتخفّي، كأنهُ يُحاولُ أن يُقنعَ نفسهُ قبلَ أن يُقنعَ الآخرينَ. اهتزّ عرشُ سلطتهِ الدينيةِ، وبدأَ الناسُ يُشكّكونَ في أقوالهِ، خاصةً بعدَ اعترافِ الشرطةِ المُرعبِ. لكنّهُ لم يستسلمْ. يُدركُ أنّ السيطرةَ على السرديةِ هيَ السيطرةُ على العقولِ، وهوَ لنْ يتخلى عن تلكَ السيطرةِ بسهولةٍ.

في أحدِ صباحاتِ الخريفِ، بينما كانتْ داليا تُحدّقُ في شاشةِ حاسوبها، مُتصفحةً رسائلَ المجموعةِ، رأتْ منشوراً من "طيف"، إحدى العضواتِ النشطاتِ في المجموعةِ. كانتْ طيفُ فتاةً شابةً، عانتْ كثيراً من ضغوطِ عائلتها التقليديةِ. لكنّها، فجأةً، نشرتْ منشوراً علنياً على فيسبوك، تُعلنُ فيهِ "توبتها" عن المشاركةِ في حملةِ "غفران لا تزالُ هنا"،

منشورات «الفيا» «AlfYaa»

وتُقرُّ بـ"خطأها" في التشكيكِ في "قضاءِ اللهِ وقدره"، وتُقسمُ ألا تعودَ إلى "هذهِ الفتنِ التي تُشوهُ سمعةَ العائلاتِ". كانتْ تلكَ ضربةً موجعةً للمجموعةِ. لم تكنْ طيفُ قد استسلمتْ خوفاً، بل استسلمتْ تحتَ وطأةِ ضغوطٍ اجتماعيةٍ ونفسيةٍ هائلةٍ. "إنهم يُحاربوننا في أرواحنا، يا داليا،" كتبَ خالدٌ في رسالةٍ خاصةٍ لداليا. "يُحاولونَ إخمادَ كلِّ شمعةٍ تُضيءُ. إنها حربٌ باردةٌ على الوعيِّ." لكنّ روحَ غفران لم تكنْ لِتُطفأَ بسهولةٍ.

* * *

في حيِّ الفضلِ، حيثُ تُركتْ غرفةُ غفران مُغلقةً كقبرٍ باردٍ، كانتْ الحياةُ في بغداد ومدن أخرى تُشعلُ نيراناً صغيرةً من التمردِ. أطلقتْ مجموعةٌ من طالباتِ الهندسةِ المعماريةِ، زميلاتِ غفران، مشروعاً سرياً، يُشبهُ خلايا النحلِ، يُعرفُ بـ"مكتبةِ غفران الرقميةِ". لم تكنْ مكتبةً بالمعنى التقليديِّ، بل كانتْ أرشيفاً إلكترونياً، يُدارُ عبرَ شبكةٍ خاصةٍ، يجمعُ أبحاثَ العنفِ ضدّ المرأةِ في العراقِ، ويُوثّقُ قصصَ النساءَ اللواتي قُتلنَ أو اختفينَ، ويُحلّلُ سرديات "الشرفِ" المُزيفِ. صارت هذهِ المكتبةُ امتداداً لروحِ غفران، لِبحثها السريِّ الذي أودى بحياتها.

تعمل الفتياتُ في الظلالِ، يُخفينَ هوياتهنّ، لكنّ عيونهنّ كانتْ تلمعُ بذكاءِ وتصميمٍ. كنّ يُوثّقنَ كلَّ كلمةٍ تُقالُ، كلَّ مقالٍ يُنشرُ، كلَّ جريمةٍ تُخفى. كنّ يُؤمنَّ بأنّ الذاكرةَ هيَ السلاحُ الوحيدُ ضدّ النسيانِ، وأنّ توثيقَ الحقائقِ هوَ أعظمُ شكلٍ من أشكالِ المقاومةِ. كانتْ تلكَ المكتبةُ الرقميةُ بمثابةِ

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

نقطةِ ضوءٍ في عتمةِ اليأسِ التي خيّمتْ على بغداد.

في أحدِ الأيامِ، بينما كانَ الشيخُ عبد المهدي يُلقي خطبةً حماسيةً في جامعِ الحيّ، يُشيرُ فيها إلى "عبرةِ غفران" و"درسِ الانتحارِ" الذي يُعلّمُ الفتياتِ "الالتزامَ بالدينِ والأخلاقِ"، أقدمتْ فتاةٌ شابةٌ، من أعضاءِ "مكتبةِ غفران الرقميةِ"، تُدعى "أسماء"، على خطوةٍ جريئةٍ. كانتْ أسماءُ فتاةً شجاعةً، ذاتَ وعيٍ رقميٍّ عالٍ، وروحٍ لا تعرفُ الخوفَ. على صفحتها الشخصيةِ على فيسبوك، نشرتْ أسماءُ تعليقاً مُباشراً، مُتحديةً فيهِ روايةَ الشيخِ عبد المهدي. لم تُهاجمْ الشيخَ بالاسمِ، لكنّها فكّكتْ خطابهُ، كلمةً كلمةً، وحجةً حجةً. كتبتْ أسماءُ:

"يقولونَ لنا إنّ 'الانتحارَ هوَ جحودٌ بنعمِ اللهِ'، ويقولونَ إنّ 'الانتحار هو أكبر شاهدٍ على الفشلِ'. لكنني أتساءلُ، هل المروحةُ هيَ من تُشنقُ الحقيقةَ، أم الأيادي التي عقدتْ الحبلَ وعلقته على المروحة؟ هل الفشلُ في الدينِ هوَ أن نسألَ عن العدلِ، أم أن نُسلمَ بالظلمِ ونحنُ نعلمُ أن هناكَ صوتاً يُصرخُ من تحتِ الترابِ؟ إنّ الحقيقةَ لا تُعلّقُ على مروحةٍ، ولا تُدفنُ في قبرٍ، ولا تُسجنُ في خطبةٍ. الحقيقةُ هيَ صوتٌ، وإنْ كانَ همساً، سيصلُ إلى كلِّ قلبٍ يرفضُ الصمتَ. وإنْ حاولتْ الأيادي المُظلمةُ أن 'تُعلّقَ السردَ' لغفران، فإننا هنا، جيلٌ كاملٌ، سنُعيدُ لها سرديتَها، وسنُحرّرُ روحَها من قيودِ الكذبِ، وسنُعلنُ أنّ المروحةَ لا تدورُ إلا لِتُكشفَ ما خفيَ، ولِتُعيدَ للحقيقةِ صوتَها الذي سُرقَ."

جاء التعليقُ بمثابةِ صاعقةٍ في الأثيرِ الرقميّ. لم يكنْ

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

مجردَ رأيٍ، بل كانَ إعلانَ حربٍ، تحدياً مباشراً لسلطةِ الشيخِ عبد المهدي الدينيةِ والاجتماعيةِ وأتباعه. بدأتْ التعليقاتُ تتوالى، والمنشوراتُ تُشاركُ. بعضُها كانَ يُؤيّدُ أسماءَ بحماسٍ، يُصفقُ لجرأتها، ويُعيدُ نشرَ تعليقها. "هذهِ هيَ بنتُ العراقِ الأصيلةِ!" كتبَ أحدهم. "الحقيقةُ لا تُدفنُ، حتى لو حاولوا شنقها ألفَ مرةٍ!" علّقتْ أخرى. لكنّ بعضَ التعليقاتِ الأخرى تحملُ تهديداتٍ مباشرةً لأسماءَ، وتتهمها بـ"الفتنةِ"، وبـ"الخروجِ عن الملةِ"، وبـ"إهانةِ الدينِ والشرفِ". كانَ "درع"، أحدُ النشطاءِ المؤيدينَ للشيخِ عبد المهدي، قد شنَّ هجوماً شرساً على أسماءَ، واصفاً إياها بـ"بوقِ الفتنةِ"، و"عميلةٍ للأجنداتِ الخارجيةِ التي تُريدُ تدميرَ مجتمعنا".

تحولتْ صفحةُ أسماءَ إلى ساحةِ معركةٍ حقيقيةٍ، بينَ صوتِ الحقيقةِ المُتمرّدةِ، وصوتِ الجزمِ الذي يُحاولُ أن يُحكمَ إغلاقَ الأبوابِ على أيِّ تساؤلٍ. تُراقبُ داليا كلَّ ذلكَ من بعدٍ، قلبُها يخفقُ بمزيجٍ من الخوفِ والفخرِ. أدركتْ أنّ غفران لم ترحلْ، بل أصبحتْ روحاً تتجسّدُ في كلِّ فتاةٍ تُقاومُ الظلمَ، وفي كلِّ كلمةٍ تُقالُ في وجهِ الكذبِ. كانتْ "مكتبةُ غفران الرقميةُ" لا تُعيدُ جمعَ الأبحاثِ فحسب، بل كانتْ تُعيدُ إحياءَ روحِ غفران في كلِّ فتاةٍ تُصبحُ "أسماءَ".

* * *

بعدَ عامٍ من الصمتِ المُطبقِ، وبعدَ عاصفةِ التحديِّ الرقميِّ، تحولتْ غرفةُ غفران في الطابقِ العلويِّ من بيتِ عائلتها في حيِّ الفضلِ إلى كبسولةِ زمنٍ، مُغطاةٍ بطبقةٍ

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

سميكةٍ من الغبارِ. لم تُفتحْ أبداً. لم تُمسسْها يدٌ بشريةٌ. لا تزالُ الأمُّ تتجنبُ الصعودَ إليها، تحملُ في قلبها مزيجاً من الحزنِ الممزوجِ بالخوفِ من زياد ومن قسوةِ القدرِ الذي اختطفَ ابنتها. زيادُ كانَ قد أغلقَ البابَ عليها، كأنهُ يُحكمُ إغلاقَ قبرٍ آخرَ فوقَ حقيقتهِ.

الأوراقُ والكتب لا تزالُ على المكتب والسرير، الرسوماتُ الهندسيةُ مُلقاةً على المكتبِ، والكتبُ المتكدسةُ في زوايا الغرفةِ. كلُّ شيءٍ كانَ كما تركتْهُ غفرانُ في تلكَ الليلةِ المشؤومةِ، وكأنّ الزمنَ قد توقفَ عندَ لحظةِ موتها. بسطَ الغبارُ رداءَهُ الرماديَّ على كلِّ تفصيلةٍ، يُخفي الألوانَ، ويُطفئُ الأضواءَ، ويُحوّلُ الغرفةَ إلى مشهدٍ منسيٍّ. لكنّ في قلبِ هذاَ المشهدِ المنسيّ، كانتْ هناكَ قصةٌ تنتظرُ أن تُروى، حقيقةٌ تنتظرُ أن تُكشفَ.

في صباحٍ من صباحاتِ الخريفِ المتأخرةِ، اخترقَ شعاعُ شمسٍ مُترددٍ النافذةَ الوحيدةَ للغرفةِ، راسماً خطوطاً باهتةً على جدرانِها. كانَ الهواءُ في الغرفةِ راكداً، ثقيلاً، يُشبهُ هواءَ قبرٍ قديمٍ. فتحت الأم باب الغرفة، و كانتْ الظلالُ تتراقصُ على الجدرانِ، تُخفي وتُظهرُ التفاصيلَ، كأنها تُشاركُ في رقصةٍ أزليةٍ للحقيقةِ.

عينا الأمِّ، التي تسلّلتْ إلى الغرفةِ ببطءٍ، تترددانِ على البابِ، تُحدّقانِ في المشهدِ بذهولٍ مُطلقٍ. تُشاهدُ المشهدَ كأنها في حلمٍ مُفزعٍ. تُحدّقُ في الجدارِ الذي كانَ خلفَ سرير غفران.

في منتصف الجدارِ، تُوجدُ كتابةٌ خفيفةٌ، بالكادِ تُرى، مُغطاةٌ بطبقةٍ رقيقةٍ من الغبارِ. حركةَ الظلالِ، وضوءَ

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

الشمسِ المائلِ والغبار، كلُّ ذلكَ اجتمعَ في لحظةٍ واحدةٍ لِتُكشفَ تلكَ الكتابةَ. كانتْ مكتوبةً بخطِّ غفران اليدويِّ الأنيقِ، وبخطٍّ كبير لونه قريب من لون الجدار، كأنّها رسالةٌ أُخفيتْ بعنايةٍ، تنتظرُ اللحظةَ المناسبةَ لِتُكشفَ.

تُحدّقُ الأمُّ في الكتابةِ، تُحاولُ أن تُفكّكَ حروفها. "الحقيقةُ لا تحتاجُ إلى موت مفجع..." همستْ لنفسها، عيناها تلمعانِ بدموعٍ حارةٍ. "بل تحتاجُ فقط إلى من يجرؤُ على رفعِ رأسهِ ليقرأَها."

كانتْ تلكَ هيَ كلماتُ غفران، رسالتُها، وصيتها الخالدةُ. لم تكنْ مجردَ كلماتٍ، بل صرخة تُدوّي في صمتِ الغرفةِ، تُحرّرُ روحَ غفران من قيودِ الكذبِ والتسترِ. دُفنتْ الحقيقةُ، لكنها لم تمتْ. بل بقيت مُعلّقةً على الجدارِ، تنتظرُ من يجرؤُ على رفعِ رأسهِ ليرى ما خفيَ.أشعة الشمس وظلالها على الكلماتِ، كأنها تُضيئها، تُعيدُ لها الحياةَ، وتُعلنُ للعالمِ أجمعَ أن لكلِّ روحٍ، وإنْ قُتلتْ، صوتاً أبدياً لا يُمكنُ إسكاتُه. تحوّلتْ غرفةُ غفران، من قبرٍ باردٍ، إلى مرآةٍ، تُعكسُ فيها حقيقةُ لا تَموت، وتُعلنُ عن صراعٍ أبديٍّ لم ينتهِ بعدُ.

* * *

جاءت كلماتُ غفران الأخيرةُ، المكتوبةُ على جدرانِ غرفتها، كإعصارٍ باردٍ يهزُّ كيانَ الأمِّ. لم تعدْ مجردَ كلماتٍ، بل أصبحتْ صرخةً، نشيداً، تحدياً أزلياً لكلِّ كاذبٍ. هذهِ الكلماتُ، التي ظلتْ مخفيةً لعامٍ كاملٍ، تُذكّرُ بأنّ الحقيقةَ لا تُدفنُ، بل تعلَقُ في الهواءِ، وتنتظرُ من يجرؤُ على رفعِ رأسهِ ليرى ما خفيَ.

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

في أربيلَ، تُشاهدُ داليا حلقةً جديدةً من برنامجِ "أرشيفُ الموتِ" لنرمين. تُقدمُ نرمين فيها قصةَ "سمر - 2019"، مُقارنةً بينَها وبينَ قضيةِ غفران وذكرى قتل غفران قبل عام. تُبرزُ كيفَ أن السرديات الرسميةَ عن "الانتحار" تتكررُ، وكيفَ أن "الحبلَ الخفيَّ" يربطُ بينَ آلافِ الأرواحِ التي لم تُروَ قصصُها كاملةً. كانتْ داليا تُحدّقُ في شاشةِ حاسوبها، عيناها تلمعانِ، تُدركُ حجمَ المعركةِ التي تخوضانها، معركةٌ لا نهايةَ لها، حربٌ على الذاكرةِ، حربٌ على الوعيِّ.

كانَ الشيخُ عبد المهدي لا يزالُ يُلقي خطبهُ، يُهاجمُ "دعاةَ الفتنةِ"، ويُشيرُ إلى "الضياعِ الذي أصابَ الفتياتِ بسببِ الانفتاحِ الزائفِ". لكنّ كلماته هذهِ المرةَ كانتْ تُقابلُ بالكثيرِ من السخريةِ والتشكيكِ على وسائلِ التواصلِ الاجتماعيِّ. أصبحتْ حملةُ "#الجسد_وثيقة_جنائية" و"مكتبةُ غفران الرقميةُ" و"أرشيفُ الموتِ" كلها جزءاً من تيارٍ جديدٍ، تيارٍ يُقاومُ الظلمَ، ويُصرُّ على كشفِ الحقيقةِ، مهما بلغتْ قوةُ حبالِ الكذبِ التي تُحاولُ أن تُشنقهُ.

كانَ الأرشيفُ الرقميُّ لغفران، الذي تُحملهُ داليا ونرمين هوَ الشاهدَ الأخيرَ، هوَ الحبلَ الخفيَّ الذي يربطُ كلَّ هؤلاءِ الضحايا بعضهم ببعض، والذي يُعلنُ أنّ القضيةَ لم تُغلقْ، بل تُركتْ مفتوحةً، كجرحٍ نازفٍ في قلبِ بغدادَ ، وقد توسع، بما ساهم فيه العشرات من المهتمين، بوقائع جديدة لقصص مخفية أو تم إهمالها على عجل

في مدنٍ تُبنى جدرانُها من الصمتِ وتُسقَفُ بأسقفِ

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

النسيانِ، هل يكفي أن تُعلّقَ كلمةٌ على حائطٍ، لكي تُحيي روحَ حقيقةٍ دُفنتْ؟ أم أنّ كلَّ روحٍ تُقاومُ الصمتَ، وكلَّ كلمةٍ تصرخُ في وجهِ الكذبِ، هيَ خيطٌ جديدٌ في حبلٍ خفيٍّ يمتدُّ في أروقةِ التاريخِ، ويُعلنُ عن صراعٍ لا نهايةَ لهُ؟

وفي غروب باردٍ من أماسي بغدادَ، بينما كانتْ أشعة الشمس، في غرفةِ غفران تُلقي بضوئها الأخيرِ على كلماتِها، وفيما كانتْ داليا، في أربيل، تُعيد قراءة ملفَ سمرَ، تُشعرُ بنبضةٍ من قوةٍ جديدةٍ تسري في روحها، ونرمين وجدت سؤالاً لا يُمكنُ لأيّ قوةٍ أن تُخرسهُ، سؤالاً يُعلنُ أنّ الصراعَ مستمرٌ، وأنّ الحقيقةَ لم تُدفنْ، وأن الضحية، كل ضحية تُطالبُ بأن تُروى قصتُها كاملةً، حتى آخرِ نفسٍ، ولا يمكن أن تقفَ فقط، متسائلين: "مَنْ التالية؟".

بوخ - برلين - تشرين الثاني 2025

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

منشورات «ألف باء AlfYaa»

ملاحظات

تظهر قضية الانتحار وجرائم القتل ضد النساء في العراق كظاهرة معقدة يصعب تحديد أبعادها الحقيقية بسبب نقص الإحصاءات الرسمية الموثوقة على المستوى الوطني. تشير المؤشرات المتاحة إلى أن جزءاً كبيراً من الحالات المسجلة رسمياً كانتحار، خاصة بين النساء والفتيات، قد تكون في الواقع جرائم قتل بدوافع ما يُعرف محلياً بـ "جرائم الشرف"، والتي غالباً ما يتم التستر عليها اجتماعياً وتسجيلها بشكل خاطئ.

تتضح هذه المشكلة في إقليم كردستان، حيث تتوفر بعض البيانات. ففي عام 2018، سجلت وزارة الداخلية 91 حالة لنساء قُتلن أو "انتحرن"، بينما ارتفعت حالات قتل النساء من 25 حالة في 2020 إلى 45 في 2021. وعلى مستوى العراق ككل، تعاني منظومة التسجيل من خلل جوهري، حيث تُسجل العديد من الجرائم ضد مجهول أو تصنف كحوادث انتحار أو حروق، مما يحجب الحجم الحقيقي للظاهرة. ويسهم في تفاقم المشكلة وجود نصوص قانونية مخففة، مثل المادة 409 من قانون العقوبات العراقي، التي تفرض عقوبة لا تتجاوز ثلاث سنوات على الرجل الذي يقتل زوجته أو إحدى محارمه متلبسة بجريمة الزنا.

في جانب الانتحار المسجل، تشهد الأرقام ارتفاعاً ملحوظاً من 343 حالة عام 2016 إلى 1073 حالة عام 2022،

منشورات «ألف باء AlfYaa»

ثم انخفضت إلى نحو 700 حالة في 2023. وتكشف هذه الأرقام عن ظاهرة مقلقة تتعلق بالتوزيع الجندري، حيث تشكل الإناث ما يقارب 45% من الحالات، وهي نسبة مرتفعة مقارنة بالمعدلات العالمية المعتادة. ففي بغداد عام 2016، على سبيل المثال، كانت حالات انتحار النساء (128 حالة) أكثر من الرجال من أصل 251 حالة إجمالاً. كما تظهر البيانات تركيزاً جغرافياً في المحافظات الوسطى والجنوبية، حيث سجلت البصرة وحدها 150 حالة ومحاولة انتحار خلال الأشهر الثمانية الأولى من عام 2024.

يشير تحليل الظاهرتين معاً إلى وجود علاقة متشابكة، حيث يُعتقد أن العديد من جرائم القتل بدوافع "الشرف" تُضَمَّن ضمن إحصاءات الانتحار. وتتشارك الأسباب الكامنة وراء كلتا الظاهريتين في جذورها الاجتماعية والاقتصادية، كالعنف الأسري، والضغوط المجتمعية القاسية، والظروف الاقتصادية الصعبة، وانتشار المخدرات. يبقى التحدي الأكبر هو غياب الشفافية الإحصائية والآليات الرسمية الفاعلة لتسجيل ومتابعة هذه الحالات بدقة، مما يحول دون فهم كامل للظاهرة ويصعب من وضع حلول ناجعة لها.

من المحتمل أن تحمل أرقام الانتحار بين الشباب الذكور، رسالة شبيهة، وقد تشكل تغطية لما يعتبره جزء من المجتمع أن سلوك بعض الشباب يخدش الحياة وخروج عن الأخلاق والعادات والبعد عن الدين.

للعلم فقط، هذه الأرقام هي قمة جبل الجليد للواقع الحقيقي.

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

صدر للكاتب

1. **ليلات بغداد** (قصص) ـ النسخة الرقمية "ألف ياء" تشرين 2/ نوفمبر 2025.
2. **لا غفران** (رواية) ـ النسخة الرقمية "ألف ياء" كانون الثاني/ يناير 2026.

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

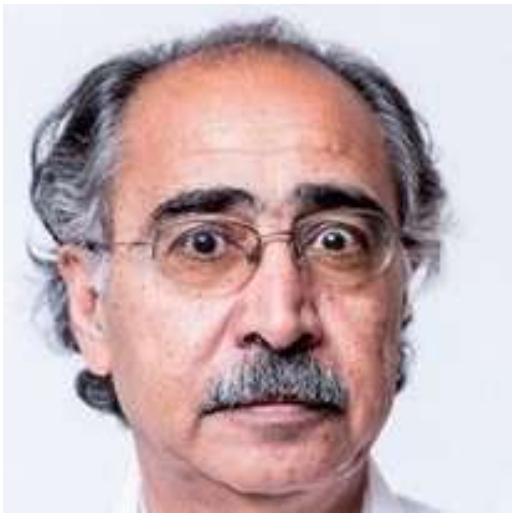

طالب الداوود

.طالب الداوود"طالب صالح محمد الداوود"، وُلد في27آذار 1955في مدينة الفلوجة ـ محافظة الأنبار ـ العراق.

هاجر عام 1979، بسبب الأوضاع السياسية في العراق وعاش في: بلغاريا 1979، الجزائر 1979- 1984، سوريا 1984- 2012، تركيا2014- 2015، اليونان 2015، ويقيم في ألمانيا منذ العام 2015ويحمل جنسيتها.

حاصل على بكالوريوس علوم حياة ـ أحياء مجهرية ـ كلية العلوم ـ جامعة بغداد ـ 1978

الخبرة والعمل:

أستاذ العلوم الطبيعية في ثانوية الواد ـ الجزائر 1979- 1981، ومعهد الغسيري للمعلمين سطيف ـ الجزائر 1981- 1983.

ـ المدير التنفيذي ـ دار الأهالي للطباعة والنشر والتوزيع ـ دمشق ـ سورية 1987- 1990،

ـ أعمال متنوعة في مجموعة من دور النشر السورية 1990- 1993،

ـ أحد مؤسسي الجمعية العراقية لحقوق الإنسان وناشط في مجال حقوق الإنسان 1986- 2005،

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

ـ مسؤول القسم الفني، مسؤول قسم الإعلام الإلكتروني، في الاتحاد العربي للحديد والصلب ـ المكتب الإقليمي بدمشق ـ سورية ـ 1994- 2010

ـ محرر في مجلة «الصلب العربي» 1994- 2010،

ـ رئيس قسم الرصد الإعلامي ـ الهيئة العراقية للإعلام والاتصالات تشرين الأول، 2010،

ـ سكرتير التحرير التنفيذي ، صحيفة «الصباح الجديد» نهاية 2012- بداية 2013،

ـ مدير عام إذاعة المحبة أف أم ـ بغداد ـ النصف الأول من عام 2013،

ـ مؤسس ورئيس تحرير موقع «المعادن العربية» المتخصص بالصناعات المعدنية،

ـ مصمم أغلفة محترف، أنجز أكثر من ثلاثمائة غلاف للكتاب العرب والعراقيين وللكتب المترجمة إلى اللغة العربية،

ـ مصمم مواقع ويب Web Site Designer،

ـ مؤسس وصاحب "شركة إعلام العرب"العراقية 2011- حتى الآن،

ـ مؤسس ومدير موقع "ألف ياء AlfYaa"المكتبة العربية الرقمية المجانية،

ـ أحد مؤسسي جمعية "AlfYaa e.V"الثقافية (تحت التأسيس) ـ برلين ـ ألمانيا،

منشورات «ألف ياء AlfYaa»